سلسة

كلمة في حق كلمة

للشيخ:



الجزء الأول 25 مقالة

سلسلة مقالات

(كلمة في حق كلمة)

لفضيلة الشيخ:

أبي قتادة الفلسطيني

عمر بن محمود أبو عمر

– حفظه الله ورعاه –

(الجزء الأول – ٢٥ مقالة)

كلمة في حق كلمة (١)

للدكتور أكرم حجازي حفظه الله[١]

[٣١ يناير ٢٠١٨ – ١٤ جمادى الأولى ١٤٣٩]

"من الواضح أن الأمة تدخل تحت الحكم الجبري مرحلة ردها عن دينها. ولعلها آخر مراحل المواجهة مع النظام الدولي. فإذا أفلتت دولة عربية مركزية واحدة من الهيمنة وتمكنت فعلاً؛ فقد تكون مقدمة لإفلات كل العالم الإسلامي. أو أن الأمة مُقْدمة على مواجهة غير مسبوقة ليست وقائعها واضحة حتى اللحظة".

(الدكتور أكرم حجازي، في تغريدة له على موقعه في تويتر).

قلت: ما قرأت كلمة منذ زمن أوعى على حركة الحياة وتدبر القدر من هذه الكلمة، فهي كلمة رجل صاحب قلب ينظر ويرقب موقعنا الصغير من خلال حركة العالم الكبرى.

قول الدكتور رعاه الله: (**ولعلها آخر مراحل المواجهة مع النظام الدولي**).

هذه كلمة فقيهة، تدرك أن كل شيء لا بد له من نهاية في العلو والكبر والظهور، ثم بعد ذلك السقوط، والناس عند لحظات العلو وقهره يصابون باليأس كالكثير من أمتنا اليوم، والحق هو أن هذا العلو يؤذن بالذهاب، وما بكاء الفاروق عندما رأى الغنائم وكثرتها خوفاً منها إلا فقهاً لهذا المعنى القرآني.

ثم قول الدكتور: (**فإذا أفلتت دولة عربية مركزية واحدة من الهيمنة وتمكنت فعلاً، فقد تكون مقدمة لإفلات كل العالم الإسلامي**).

ليت الدكتور لم يشكك بل يجزم، فقوله: (**قد تكون**) عندي هي اليقين بلا شك، بل أراه وأشعر بلفحه ولهيبه.

---

[١] التعليقات الموجودة في هامش المادة من كتابة الشيخ حفظه الله، وأما تخريج الأحاديث والنقولات فهي من جهود الناشر.

وأما قول الدكتور: (**أو أن الأمة مقدمة على مواجهة غير مسبوقة، ليست وقائعها واضحة حتى اللحظة**)، فكلمة لو كان لي الحكم على الكلمات لجعلتها مانفستو حكمة النظر للقدر عند هذه المحطات الكبرى.

هذه كلمة عجز، لكنها بحق كلمة غنى وعلم وحكمة، يعرفها كل من نظر لمثل هذه التحولات الكبرى في تاريخ البشرية، فالحيرة عين العلم، لأن مبدأها النظر إلى عظائم ما سيكون، وحقاً ما سيأتي سيعجز الناس عن وصفه وهم يرونه، فكيف بمن توقعه!

أنا متأكد أن هذه الجمل من الدكتور صرخت فيه ليخرجها، وأرهقته وهو يتأمل فيها، مع أن حقها أنها لمحة فهم صعقت صاحبها فصرخ منها وبها.

شكراً دكتور، وحياك الله في زمرة المتفائلين، والذين هم محط ضحك الكثيرين.

كلمة في حق كلمة (٢)

للخليل بن أحمد رحمه الله ورفع درجته في الصالحين

[٣١ يناير ٢٠١٨ – ١٤ جمادى الأولى ١٤٣٩]

من أغنى الكلام وأنفعه في ترك المخالف لك بلا علم ولا إنصاف كلمة عاقل العلماء والأدباء، والذي قيل لن يمر على الصراط بعد الأنبياء وحواريهم أعقل منه، إنه الخليل بن أحمد، وهو يقول لابنه:

لَكِـــنْ جَهِلْـــتَ مَقَـــالَتِي فَعَـــذَلْتَنِي وَعَلِمْـــتُ أَنَّـــكَ جَاهِـــلٌ فَعَـــذَرْتُكَا

هكذا المرء العاقل في هذه الحياة مع الناقدين بجهل وتتطاول وتسور المعاني بلا فقه ولا دين، فهو بين حدي عذل الجاهل ولومه وتقريعه، وبين إعذاره وتركه والرحمة به، والرفق به، لعله يكتمل ويصحو يوماً، أو لعله يلاقي من هو أجهل منه فيؤدبه، ويبكي أيامه ولياليه.

كنا زماناً نجهل قاعدة: قل كلمتك وامش، لا على معنى عدم رعايتها وسقايتها وتهذيبها، ولكن على معنى بذر الخير في الأرض ليأتيه من يرعاه ويفهم عليه ويقطفه.

في شبابنا كنا نجهل كلمة (الفهم) فنظن هو تفكيك الكلمة على معنى المعجم، وتبين ظاهرها المراد، ولذلك حين نقرأ لأهل المعاني كلمتهم: (لعلنا نفهم) أو يدعون ربهم أن يفهموا، لم نكن نقف أمامها إلا رداً لها جهلاً، ونقول: أي سر خفي في هذا الكلام حتى ندعو ربنا أن يفهمنا إياه؟!!

كم جهلنا كلمات فرددناها، ثم تبين لنا سر غوامضها، أو بعض معانيها فأطربتنا ومتعتنا، وخضعنا لها، ولذلك: دع الناس تعلمهم الحياة، ولا تقرعهم، بل ادع لهم، وأحسن إليهم، واشفق عليهم، فما أنت إلا مثلهم البارحة، جهلت، فهم يجهلون، وغابت عنهم الحكمة فهم في بعد عنها، فإن بقوا على سبيل التطلع للحكمة، وطلب الفهم، ومراقبة المعاني في الكلمات والأحداث سيصرخون صرختك: كم كنت جاهلاً، وأنا اليوم أشد جهلاً.

الخليل بن أحمد يدعوك أن تعذر لمن لم يفهم عليك، وهذا يعني أن بعض المعاني محجوبة عن بعض الناس، وطلبك إفهامهم عي وجهل وغلط.

هذا في الصغار، فما بال الكبار؟

أقول: إنهم يفهمون، ولكنهم يحسدون، وتأسرهم أهواؤهم، فارحمهم بالدعاء ما استطعت، وعليك بالإعراض والصبر، وإياك أن تظن أن الناس لا يفهمون، فتجهد بالصراخ: أن افهموا، بل قلوبهم تعلم، وما عليك إلا إصلاح باطنك بينك وبين مولاك.

هذه الكلمة (كلمة الخليل) لا تقال لمخالف كبير، ولا لناقد نحرير، فهذا له شأن الاحترام والتقدير، والحب، وشأن هذا الكبير اللمحة الدالة، فهي مفتاح البلاغة كما قال سلفنا.

حين يبدأ المرء تعلم النحو فهو يفتخر به حتى يحرك آخر الكلمات التي يقف عليها في نهاية جملته، وحين يتعلم التجويد فهو يتكلف التصغير والتكبير ليقول ها أنا، فلما يكبر يجري مجرى الكبار، فهو يسرق الحركات والنغمات على وجه من وجوه السر الخفي الذي يدركه الكبار مثله.

ليس من شأن الكبار رفع الصوى والأعلام فوق كل كلمة، ولا عند كل معنى، بل إن فعل هذا مجه الناس، وأعرضوا عنه، وعدوا فعله من الغلط، وهي عندهم دالة على صغير أمره في نفسه، وإن حاول تعظيمها وتكبيرها.

رحمنا الله برحمته.

كلمة في حق كلمة (٣)

للإمام الشافعي رحمه الله (١)

[١ فبراير ٢٠١٨ – ١٥ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال الإمام المطلبي الشافعي رحمه الله ورضي عنه: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه".

ما زلت أقفو رأي هذا الإمام، وأتقفر البحث عن كلماته، لما رأيت منه فقه النفس والحياة، وعقل التقاط اللمحات القدرية، فهو ليس إمام أصول وفقه فقط، لكنه إمام حياة، يراقب النفوس، ويستطلع الكليات، لا يقدر المرء معه وهو يقف على ساحله إلا أن يفتن ويذهل عقله، فينساق انسياق الحب والفهم والطرب، ومن لم يعلم معنى كلمات السلف، وأنها كليات لفروع كثيرة، وأنها قواعد أخذت من ملاحظات لا تعرفها النفوس اللاهثة بعيداً عن المعاني، فقد جهلها جهلاً كبيراً، ونحن في زمان يكفينا فيه أن ندرك مداركهم، ونستطلع أصولهم، فرحمهم الله ورضي عنهم.

الشافعي إمام الأمة، انتفعت به كل طوائفها، واستقت من جداوله كل السواقي، وما أعرض الناس عنه إلا لجهلهم بعلمه، وغياب أدوات البحث عن معاني كلماته، وهو عظيم القدر في علوم الشرع، وعلوم الحياة، يلتقط لك الدرر من كلام الله تعالى وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، ويبدأ من بعده ينسج عليها، يزيد أو يفصل، يشرح معاني كلامه، فيبدو للبعض أنها منه، وليست كذلك، بل هي بعض فيض دره.

الشافعي إمام كليات وقواعد، وهذه لا تكون حتى يستقصي الفروع إحاطة على أقصى ما يقدر عليه أمثاله من العلماء، فما دورنا إلا أن نعيد القواعد لفروعها، ونعمل القواعد لنوازل ما يقع لنا، فهذا مقدار ما نحن عليه مع علوم هذا الرجل العجيب.

لقد ظلم أئمتنا في عصرنا رجلان: مقلد لهم بلا معرفة مدارك كلامهم وأصولها، وعائب عليها وهو على معنى المقلد لها بالجهل والغباء، فهذا صارخ بالأتباع بلا عقل، وهذا منفر عنه بلا عقل، وكلاهما في الجهل سواء، وهذا المعنى أشار إليه الإمام الناقد المحدث الفقيه ابن رجب فقال: "ولدقة كلامه في ذلك -أي ابن حنبل- ربما صعب فهمه على كثير من أئمة أهل التصانيف ممن هو على مذهبه، فيعدلون عن مآخذه الدقيقة إلى مآخذ أخر ضعيفة، يتلقونها عن غير أهل مذهبه، ويقع بسبب ذلك خلل كثير في فهم كلامه"[١].

لا أحد يطلب التقليد بلا علم وفهم، وكذلك لا أحد يقبل الطعن بجهل ما يعرض عليه، فكلاهما في الشر سواء.

كنت أعجب من قول ابن خزيمة وقد سئل: هل تعرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة في الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتبه؟ قال: "لا"[٢].

فأردها عن جهل بطرق علوم هؤلاء القوم مع العلم، ومع التصنيف فيه، حتى قرأت كلمة الإمام مسلم في منهج الشافعي في كتبه، فاستغفرت من ذنب الجهل، وهو لازم للعبد[٣]، وإن شاء الله سأشرح هذه القطعة في كلام قادم بتيسير الله وفضله.

وهاهنا الآن كلمات له تدل على أثر العلوم ونوعها على أصحابها، وكيف تؤثر هذه العلوم على مساقات النفس والعقل، وهي كلمات رجل خبير في الحياة، يراقب ويلاحظ، ويسجل، ويجمع المعاني لبعضها بطريقة حكيمة.

انظر إلى الأعمال والقراءات والتحصيلات من العلوم، وانظر إلى آثارها على النفوس؛ الفاعلة والقابلة، من عمل ومن علم علّم الآخر، ترى أن الرجل عالم نفس عظيم، وصاحب نظر وملاحظة، وهكذا كان الشافعي، صاحب فراسة، نور الله قلبه، وأبان له من علوم القلوب ما يغبط عليه.

---

[١] من كتابه: الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة الموجود في مجموع رسائل ابن رجب (٦٣٠/٢).

[٢] طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير الدمشقي (١٠١/١).

[٣] أنصح طالب العلم أن يعود لها -أي كلمة الإمام مسلم في الإمام الشافعي وطريقة كلامه في الفقه- وهي في كتاب الإمام البيهقي في كتاب بيان خطأ من أخطأ على الشافعي، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(**من تعلم القرآن عظمت قيمته**): هذا القرآن عظيم، ومن تعلق بالعظيم صار عظيماً، والنفوس تعلم ما حملت من العلم، فتثقل بثقل العلم، وتوزن بميزان ما في صدورها، وهذا الذي قاله الإمام يعرفه كل واحد من نفسه، حين يقال له: فلان حافظ، فكيف إذا ازداد فوق الحفظ علماً به، فحينها تعلم أي معنى يقع في قلوب الناظر إليه!

أعرف أحدهم كان يقول وقد خاطب رجلاً حفظ كتاب الله في السجن، وقد حاول خارج السجن أن يحفظ كتاب الله ويتمه فما استطاع، فتكلم يوماً مع رجل سجن عشر سنوات، وحفظ كتاب الله في أول سجنه، فقال له: والله إني على استعداد أن أسجن عشر سنين وأحفظ كتاب الله تعالى.

إن الحافظ، والعلم لكتاب الله تراه العيون عظيماً، وهو في ميزان الله تعالى إن أخلص كذلك، ويكفيه ما قاله الحبيب المصطفى عنه: (**يقال يوم القيام لصاحب القرآن اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها**)[1].

والله يقول عن مكان هذا الكتاب: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾ فصدور القراء هي مكان هذا الكتاب، والشيء الجليل، لا يكون إلا في مثله، ويعظم المكان بكونه محلاً العظيم.

راقب الشافعي منازل الناس، فعلم أن مقاماتهم في الوجود بما معها من الكتاب، وعلم الكتاب، ذلك لما رأى واستمع لقوله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله ليرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**)[2].

العلم بالكتاب لا يكون أبداً بغير حفظه، وتصور العلم به من غير حفظ ضرب من الغلط يعرفه كل أحد من نفسه، فلا تخدع النفس بتصور وجود عالم بالكتاب غير حافظ له.

وللحديث عن كلمة الشافعي بقية.

---

[1] رواه الترمذي وأبي داود وصححه الألباني وأحمد شاكر وغيرهما.

[2] رواه مسلم في صحيحه.

كلمة في حق كلمة (٣)

للإمام الشافعي رحمه الله (٢)

[٣ فبراير ٢٠١٨ – ١٧ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال الإمام المطلبي الشافعي رحمه الله ورضي عنه: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه".

قوله رحمه الله تعالى: (**ومن نظر في الفقه نبل قدره**).

وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**)[1].

والشافعي رحمه الله يرى في زمانه ومجتمعه كيف يرقى الفقيه، وكيف يسمو بين الناس، والنبل رفعة القدر بين الناس، وذلك لعظم ما يحمل، ولحاجة الناس إليه، وإذا أردت تمييزاً بين الحالة الأولى والثانية، أي بين من تعلم القرآن، ومن نظر في الفقه، فإن الفرق بينهما دقيق، فقد يتعلم المرء القرآن، حافظاً ومتدبراً، ومفسراً، فيغلب عليه هذا الحال، فيراه الناس عظيماً لما رفع الله من قيمته بما حواه صدره، والثاني: مشغول بالمعاني التي تتعلق بالأحكام، والحلال والحرام، فعنايته في هذا الباب أشد من غيرها، مع أن الفقه لا يكون بغير نظر في الكتاب، ولكن يغلب تعلمه ما في القرآن بما يتعلق بالأحكام الشرعية التكليفية، فحاجة الناس إليه أشد من الأول، ولذلك قال: (**نبل قدره**)، أي صار له مكاناً في الناس، والأول له مكان في القلوب لما يرون من حيازته لأمر عظيم.

قوله رحمه الله: (**ومن كتب الحديث قويت حجته**)

---

[1] متفق عليه.

وهذا قد يكون في زمنه، حيث المناظرات بين الفقهاء والمدارس الفقهية، والحديث النبوي الشريف يحسم خلافهم، وذلك لأن الحديث يفصل ويبين ويشرح، ومن حاز ألفاظه فهو القادر على إقامة الحجة له.

ووجه آخر لمعنى كلمة الشافعي رحمه الله، وهو أعم من المعنى الأول، فإن الحديث الشريف يقيم العقل على منهج من العدل والفهم والإصلاح، فمن أخذ به، فهو آخذ لما يصلح اعوجاج العقل، مذهب لما يطرأ عليه من غلط، وهذا تراه جيداً واضحاً فيه، فخذ مثلاً ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وانظر إلى الربط السنني العجيب الذي لو تفكر المرء فيه لطرب واستعذب المعاني، يقول صلى الله عليه وسلم: (**عليكم بالصدق فإنه مع البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور وهما في النار. وسلوا الله العافية، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من العافية. ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**)[1].

يعلق ابن القيم على الجمع بين اليقين والعافية بقوله: "فجمع بين عافيتي الدنيا والدين، ولا يتم صلاح العبد إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه"[2].

فهذا من تبصرة العقل الذي يفتح له آفاق التأمل والنظر فتقوى معالم الحق فيه، وبه يعرف غلط الناس وما يقولون.

قوله رحمه الله: (**ومن نظر في اللغة رقّ طبعه**)

وهذه والله طاف الناس حولها فلم يبلغوا فيها ما بلغ فيها هذا القول من هذا الإمام العظيم، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

فإن اللغة، ومن أعظم مصادرها الشعر، وما لحق به من معناه من النثر البليغ، فهذان إنما ينشئان من معاناة النفس وتصوراتها ومشاعرها، فالشعر لا يحكي العقل كما يحكي العاطفة، بل هو يسير مع

---

[1] رواه ابن ماجه وابن حبان وصححه الألباني.

[2] زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/١٩٧).

خلجات النفس ومشاعرها، فإذا صار إلى العقل أكثر قلت عناية الناس به، إلا إذا امتزج هذا العقل بأحاسيس النفس واضطراباتها، فحينها يأتي على وجه من الاستواء التام من كلام البشر.

والذي ينظر في كوامن النفوس وما فيها من معاني الحب والغزل، ومعاني البغض والهجاء، ومعاني الحياة من شجاعة وكرم وصبر وانشراح، وغير ذلك من أغراض الحديث النفسي ترق نفسه، وتخرج عن صلابة المناظرات والكلمات، وطحن العقول والتصورات، وتخرج عن عالم المادة إلى أفق الكلمة.

وأنت ترى بعض الجلافة في ناس، فتبحث عن قراءاتهم، وهذا إن كانوا من أهل الكلمة لا من أهل الحجر والدرهم، رأيتهم من أبغض الناس لحرفة الأدب والقراءة فيه، بل ربما احتقروا القراءة فيه وعدوه ضربا من ضروب ضياع الوقت (زعماً أن حياتهم كلها في ما هو مهم جداً).

ولذلك من النصائح التي يجب أن يقوم لها المربي هو دفع الطالب والمبتدئ لهذا النوع من القراءات، وصناعة المتعة فيه، لتحس بالإنسان ومعاناته، وتحس برقة الكلمة في نفس صاحبها، وبقسوتها على نفسه أن جاءته على غير وجهها، وأما موتى هذا الباب، فهم لا يقيمون شأناً لسبابهم للخلق لأنهم دواب على خلقة بشر.

الإنسان من الأنس، والأنس يصنع بالقرب من المشاكل لك في نفسك، وأنت لا تعرف الناس إن لم تتخلل نفوسهم من خلال كلماتهم.

لا تظنن أن زهد السلف، وعباداتهم وتقواهم كانت تمنعهم من تلك اللمحة الإنسانية التي بها يلجون قلوب الناس فيطربون فتصفق لها قلوبهم.

اقرأ هذا الخبر من الأغاني (يا لذنبي اليوم عند بعضهم أني أنقل عن كتاب الأغاني):" أخبرني الحرمي، قال: حدثنا الزبير، قال: حدثني محمد بن عبد الله البكري وغيره، عن عبد الجبار بن سعيد المساحقي، عن أبيه، قال: دخلت مسجد رسول الله مع نوفل بن مساحق، فإنه لمعتمد على يدي إذ مررنا بسعيد بن المسيب في مجلسه وحوله جلساؤه، فسلمنا عليه فرد علينا، ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد، من أشعر صحابنا أم صاحبكم؟ يريد عبد الله بن قيس أو عمر بن أبي ربيعة، فقال نوفل: حين يقولان ماذا يا أبا محمد؟ قال: حين يقول صاحبنا:

خليلـــــيّ مـــــا بال المطــــايا كأنَّمــــا | نَرَاهـــا علـــى الأَدْبَار بالقـــوم تَـــنْكِصَ
وقـــد قُطِعَـــتْ أعنــــاقُهن صَـــبَابةً | فأنفُسُـــنا ممـــا يُلاقِـــينَ شـــخَّصُ
وقـد أتعـبَ الحـادي سُـراهُنَّ وانْتَحَـى | بِهِـنّ فمـا يَأْلُـو عَجـولٌ مُقَلِّـصُ
يَـزِدْنَ بنـا قـرباً فيـزدادُ شَـوْقُنا | إذا زاد طـولُ العهـد والبعـدُ يَـنْقُصُ

ويقول صاحبك ما شئت، فقال له نوفل: صاحبكم أشعر في الغزل وصاحبنا أكثر أفانين شعر؛ فقال سعيد: صدقت. فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده حتى وفى مائة، فقال البكري في حدثيه عن عبد الجبار: قال مسلم: فلما انصرفنا قلت لنوفل: أتراه استغفر الله من إنشاد الشعر في مسجد رسول الله؟ فقال: كلا، هو كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر فيه، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه"[1].اهـ

تأمل أي نفس هي هذه النفس العابدة، وهي يتكلم عن التشبيب والغزل وخلجات نفوس المحبين (ألا تعساً لجلافة النفوس وغلظة القلوب ومرارة الكلمات).

يَـزِدْنَ بنـا قـرباً فيـزدادُ شَـوْقُنا | إذا زاد طـولُ العهـد والبعـدُ يَـنْقُصُ

لقد كان لإمام التأويل ابن عباس رضي الله عنهما مجلس لإنشاد الشعر، وكذلك كان لإمام الفقه الشافعي مجلس في هذا كذلك.

قول الشافعي رحمه الله: (**ومن نظر في الحساب جزل رأيه**).

هذا وقد كان الشافعي ينعى على المسلمين تركهم هذا العلم وعلم الطب للأغيار من غير المسلمين من الكفار كاليهود والنصار والصابئة.

والحساب يعلم المرء دقة النظر، ويكشف عن عقل دقيق، يربط المألات بالمقدمات، ولا يقبل الأرقام بمجرد الصراخ وكثرة التهويش، بل بواقعها وصدقها فقط.

---

[1] الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (١/١٢٢).

وأنت ترى أن عقلاء العلم الشرعي في أصل دراستهم من أتقن الناس بالحساب، وما يسمى اليوم بالرياضيات (وهي والله تسمية جليلة، لأن علم الحساب يروض العقول ويمرنها) فإن كان ضعيفاً فيه كان ضعيفاً في العلوم الشرعية كذلك.

وعامة من برز في أمر الفكر والنظر من هو محب لعالم التجريد الرياضي، لأنه يهتم بسعة العقل، وبالتصورات الذهنية البعيدة، فالأرقام لها سحرها، ولها تمرينها للعقول.

فقول الإمام: (**جزل رأيه**)، أي أتقن، وذلك لأنه يصيغه على وجه من وجوه الربط المحكم لما علمته الأرقام هذا العقل.

قول الشافعي: (**ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه**)

اللهم ارحم الشافعي لما بلغ ونصح وعلم.

هذه الكلمة منه سياج التحصيل العقلي، فإنه لو حاز كل ما تقدم من خير ومعارف وعلوم، ثم يهن نفسه بأعمال الجهالة والسفاهة والتعرض لقبائح الأقوال والأعمال والمواقف، لم ينفعه شيء من هذا كله.

تأمل رجلاً يصارع كل أحد، ويقاتل كل متكلم، ويقارع من يستحق ومن لم يستحق كيف يكون شأنه بين الناس، وكيف تسقط قيمته، ويكون مضغة على كل لسان، ويتجرأ عليه كل صغير وكبير.

العاقل لا يحارب السفهاء ولا الصغار، ذلك لأنهم يبلغون من السفه ما لم يبلغ، ويصيبون من المقاتل منك ما لا تفعله، مهما بلغت سفاهة فهناك من هو أسفه منك، ولذلك من حكم الوجود الصبر، والتغافل، وترك الخصومات إلا في ما ينفع ومن يستحق التنبيه عليه.

السفيه من يستفزك ليعرف، ويشهر، ويرتفع، فلم تبلغه مراده منك سفاهة منك يا رجل؟!

صون النفس: تركها المستقذرات حتى لو كانت مباحة.

وترك ما يسقطها.

تركها الخوض مع الجاهلين.

وأعظم ذلك شغلها فيما ينفعها.

لو كنت أكبر الناس، وأعلم الناس، وأتقى الناس، ثم خاصمت سفيهاً، فأنت لم تصن نفسك، لأنك عرضت نفسك للسب، فترمى مهابتك وكلماتك مهما كانت حقاً، وتذكر أن معاشرة السفهاء في مقاماتهم وكلماتك تجعلك أنت سفيهاً، وحينها ذهب كل معنى فيك، ومن تعود الكلام مع السفهاء أصاب منهم بعض أخلاقهم، من الجرأة على الكلمات القبيحة، والمعاني الضعيفة، والتعجل في القول والحكم.

صن نفسك يا عبد الله، وهذه تقال من الإمام الشافعي بعد أن أبلغ في ذكر العلوم ومعانيها في نفس صاحبها ونفوس الناس، ثم أعطاك سياجاً تحمي به هذا الحائط من الخيرات، وهذه الحديقة من العلوم.

تأمل تنوع العلوم، وتأمل كيف جعلها كلها ضرورة حياة، وضرورة نفس، ولم يعب بعضها لأن غيرها أهم منها، فالصغير يقيم الكبير، والكبير يحتاج في قيامه للكبير، والعاقل من أخذ بأهم العلوم وتفرغ لها، ولم يضع من نفسه في غيرها، بل أصاب ما يحتاجه قياما بحق قلبه وعقله وحياته.

رحم الله الشافعي، ورفع درجته مع الصديقين، فوالله إني أحبه حباً بلغ مني ما هو فوق الوصف، فقد علمني وأدبني، وفقهني، ولا أملك إلا الدعاء له، والدعاء لي بأن أجتمع معه تحت ظل الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور، مع المتحابين في الله.

والحمد لله رب العالمين.

كلمة في حق كلمة (٤)

لعباد بن عباد الخواص الشامي رحمه الله

[٤ فبراير ٢٠١٨ – ١٨ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال عباد بن عباد الخواص الشامي: "لا تعيبوا البدع تزيناً بعيبها، فإن فساد أهل البدع ليس بزائد في صلاحكم، ولا تعيبوها بغياً على أهلها، فإن البغي من فساد أنفسكم".

هذه الكلمة رواها الدارمي في مقدمة سننه، في وصايا كثيرة جداً من هذا العابد المترجم له في الزهاد والعباد، ومقدمة الدارمي لها اعتناء من قبل الشراح لما فيها من فوائد تخص السنة وأهميتها ورواتها وآدابها.

وهذه النصائح جعلها الشيخ رحمه الله خاتمة المقدمة، وأتى بها بكمالها، فرحم الله القائل والراوي.

هذه الكلمة من هذا العالم المحدث، فقيه النفس ومسالكها، تقطر حكمة فيما يخص الناصح، ذلك لاعتناء أهل العلم وحكماء الحياة ومداخل الشيطان على النفس ومداخل الهوى على الطاعة بما يحصل من ذلك كله عند الطاعة، ومن ذلك النصيحة.

النصيحة فيها نوع علو من الناصح على المنصوح، فإن سببها إما زيادة العلم الذي جهله المنصوح، وإما زيادة تقوى، وهذا مزلق خطير يجب التنبيه على مجاري الهوى فيه، فقال فيه أهل الخبرة والتقوى ما قالوا ليردعوا النفس عن هذه المزالق وهذه الأهواء.

النفس لها حيلها، تتخفى تحت أستار من الخير، والهوى يختبئ تحت مطالب النفس لا مطالب الحق، فترى المرء في ظاهره يريد الحق، وهو لا يريد إلا نفسه، يُعرف هذا من خلال ظواهر عديدة، نبه الإمام أحمد عليها، منها دوام تقريع المنصوح بالنصيحة، ودوام ملاحقته له بسبب وبغير سبب، فهو يلتقط الكلمة ويبدأ بمضغها في كل حال ووقت، فتنتهي القضية بينهما إلى خصومة نفس لا نصرة حق وصلاح.

للمرء أن يرد الباطل الذي يرمى به، فهذا حق لا شك فيه، لكن الغلط يدخل في دوام السجال والحرب، خارج ما قرره المظلوم (كما يرى من نفسه)، فإن تجاوز الحد انقلب من كونه مظلوماً إلى واقع أنه ظالم.

ومن هنا فلا يقبل قول ولا حكم من حكم بنزغات نفسه، ولا بمن يتابع هواه، ولا بمن يعظم الصغير، ولا بمن يطغى في مطالبته الناس بالهدى، فإن فعل ذلك علم الناس أنه لا يريد حقاً، ولكن طغى وفسد وأفسد، فحينها يعاقب عقاب المفسدين، ويشنع عليه تشنيع من يبدأ الناس بالجهل والظلم، سواء بسواء.

هذا الإمام عباد بن عباد يعظ الواعظين من أهل السنة بموعظة عظيمة مهمة في إصلاح قلوبهم لئلا تتجاوز الحد فتطغى، فيقول لهم:

(**لا تعيبوا البدع تزيناً بعيبها**).

مقصود عيب البدعة إزالتها، وحظك من هذا أن تتأسى بالرسل، وتحصل الأجر، فإن زالت عظم الأجر، وأصبت أجوراً كثيرة، ولكن في بعض المرات يكون عيب البعض في عيبهم لبدعة ما أن يكون لهم حظ من ذكر أو رفعة أو سمعة، وحينها بطل الأجر، وذهب التعبد، ولم يجن الآمر شيئاً من الآخرة، وقد يذم من الناس لما يفوته من حب الله تعالى له.

وهذا كالمجاهد، فإنه وإن قاتل الكفار، بل ربما مات في قتالهم، لكن إن فعلها تزيناً بالشجاعة ذهب أجره ومات غير شهيد.

لا تعيبوا البدع تزيناً بعيبها؛ أي طلب شهرة وسمعة ومنصباً وذكراً في الدنيا وأنتم تنهون عن هذه البدعة.

وأنت ترى هذا الغلط يكون أوضح ما يكون حين يحكم الناس بقلوبهم أنه في خصومته هذه لم ينصر حقاً، ولا فقه الناس علماً، ولكن نصر نفسه، وصار الحديث عن نفسه أكثر من حديثه عن طاعة رب العالمين.

والشيخ رحمه الله يبين أن حال من تزين بالنهي عن البدع حقيقته تمني زيادتها ليبقى متزيناً بالنهي عنها، فينبه إلى أن زيادة البدع لا تعني زيادة صلاحكم، وهذا على معنى أن وجود الشر لا يعني زيادة صلاح من صلح، فإن زيادة الصلاح تكون بفعل الصالح فقط.

ومن معاني كلمته أنك لا تكون سنياً بتلبس البدعة في خصمك، ولا ترتقي صالحاً بفساد من عاديته، وهذا أقرب ما يمكن تصوره بمن يريد أن يثبت صلاح مقامه وقوله بنشره شرور غيره، ظاناً أنه بهذا يصيب صيت الصلاح أو حقيقته.

ويقول رحمه الله: (**ولا تعيبوها بغياً على أهلها، فإن البغي من فساد أنفسكم**)

هذا قد عصى الله ببدعته، وهذا قد عصى الله ببغيه.

والناس يعلمون فساد المبتدع، فكيف يحكمون على ناصحه بالبغي؟

إذا تجاوز الحد فهو باغ؛ أي ظالم ومتجاوز للحد الذي شرعه الله.

وتجاوز الحد له صور لا تكاد تنقضي أحوالها، فمن قرع وسب وشهّر فقد بغى.

ومن سمى السنة بدعة فقد بغى.

ومن كرر بلا ضرورة فقد بغى.

ومن راجع التائب فقد بغى.

ومن ذكر بما مضى فقد بغى.

وهكذا تتعدد صور البغي في النصيحة، يراها الناس يومياً، ويعرفونها في رجال لا تخطئ أعينهم في أوصافهم، وذلك لشهرتهم في طرق الرد والوعظ والنصيحة.

رحم الله الإمام عباد بن عباد، وأنصح كل طالب علم أن يعود لهذه النصيحة فيقرأها ويتعلمها، فهي نافعة لدينه وآخرته.

في هذه الكلمة بيان خطأ من ظن أن نصائح العباد والسالكين وأهل التزكية قاصرة على كتب قوم دون قوم، فهذه كلمات العابد نافعة للسالكين العابدين لربهم، تجدها في كتاب من كتب السنة والأصول، وهي من غرر التزكية لطالب العلم، تهديه في أول طلبه وفي ما ولي بعد ذلك من حياته.

كلمات في هذا المعنى من كلام العلماء:

قال أبو حامد الغزالي: (المراء: طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير، وإظهار مزية الكياسة)[١].

وقال ابن تيمية: (وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانَّةً أنها تفعله طاعة لله)[٢].

قال ابن القيم: (والفرق بين النصيحة والتأنيب: أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه، فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولأمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق المريض المشبع مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح. وأما المؤنّب: فهو رجل قصده التعيير والإهانة، وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح، فهو يقول: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحق الذم والإهانة، في صورة ناصح مشفق. وعلامة هذا: أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مِثْلِ عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ويطلب له وجوه المعاذير. فإن غُلِب قال: وأنّى ضُمِنَتْ له العصمةُ، والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساويه والله غفور رحيم ونحو ذلك)[٣].

---

[١] إحياء علوم الدين (١٤٧/٣).

[٢] مجموع الفتاوى (٢٠٧/٢٨).

[٣] الروح (ص٣٠٨).

كلمة في حق كلمة (٥)

كلمة في حديث شريف

[٧ فبراير ٢٠١٨ – ٢١ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال الترمذي رحمه الله:

حدثنا هناد، عن قبيصة، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه أبي بن كعب، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: (يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه) قال أبي: قلت يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: (ما شئت) قال: قلت الربع، قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خير لك) قلت: النصف، قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خير لك) قلت: فالثلثين، قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خير لك) قلت: أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: (إذاً تكفى همك، ويغفر ذنبك).

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

هكذا في مطبوعة شاكر رحمه الله، وفي تحفة الأشراف: حديث حسن، وهذا الأليق به في حكم الترمذي، فإنه ذكر حكمه في عبد الله بن محمد بن عقيل وأنه صدوق، وأنه تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه، ثم صار إلى قول البخاري كما روى عنه، وأنه مقارب الحديث. (جامعه:١/٩).

وبهذا السند عن قبيصة رواه جماعة منهم: عبد بن حميد كما في المنتخب من مسنده (ح/ ١٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح/٧١٥) والحاكم في مستدركه (٢/٥١٤) وقال فيه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في مختصره: صحيح.

وهذا الحديث بهذا السند فيه علتان:

أولاهما: رواية قبيصة عن سفيان، فقد تكلم فيها أهل الصنعة، ومن ذلك:

قال حنبل بن إسحاق: قلت (لأحمد): فما قصة قبيصة في سفيان؟ قال: كان كثير الغلط.

وقال ابن معين: قبيصة ثقة في كل شيء إلا في حديث سفيان، ليس بذاك القوي، فإنه سمع منه وهو صغير.

وأما النسائي فقد أطلق القول فيه بقوله: وكان كثير الغلط.

وقد تابع قبيصة سعيد بن سلام العطار كما عند الجهضمي في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (ح/١٤).

ولكن سعيد هذا اتهمه بالكذب جماعة، وذكر هذا أحمد والبخاري، وترفق آخرون فضعفوه، فلا قيمة لهذه المتابعة لشدة ضعف سعيد هذا.

لكن خرج قبيصة من التبعة عليه برواية وكيع عن سفيان، ففي مسند أحمد (٥/٦٣١) قال: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، ...الحديث وختامه: (**إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمك من دنياك وآخرتك**). وذلك بنفس السند مع توزع الحديث إلى قسمين، فانتفت هذه العلة.

والعلة الثانية: عبد الله بن محمد بن عقيل، وهذا رجل شدد بعضهم فيه القول، وترفق آخرون، ومنهم من حسن حديثه وقبله.

وفي تهذيب الكمال للمزي -كما في ترجمته- تستطيع النظر فيها هناك، وخلاصة القول أنه كما قال البخاري: مقارب الحديث، فهذا ينفعه إذا توبع، وأما إذا انفرد فهو إلى التضعيف أقرب.

وهذا أصوب وخلاصة ما قيل فيه.

والحديث جاء من روايات أخرى، فقد رواه عن أبي هريرة الإمام البزار كما في مسنده (ح/٨٩١١) قال: حدثنا محمد بن يحيى القطعي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا عمر بن محمد بن صهبان، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ... الحديث؛ وفيه خلاف في الألفاظ يسير، وآخره: (**إذاً يكفيك الله هم الدنيا والآخرة**).

وهذا سند ضعيف جداً.

قال البزار: وهذا حديث لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم حدث به عن زيد إلا عمر بن محمد بن صهبان، ولم يكن بالحافظ.

وعمر هذا أجود ما قيل فيه قول ابن عدي: عامة أحاديثه لا يتابعه الثقات عليه، وغلبت على حديثه المناكير.

فحديثه هذا منكر الإسناد، فلا يصلح للمتابعة.

وروى البيهقي في الشعب (ح/٢٥٨١) قال: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا صالح وابن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، أخبرني محمد بن يحيى بن حبان: أن رجلاً... الحديث.

قال البيهقي: مرسل جيد، وهو شاهد لما تقدم، أي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل.

وجاء من طريق مرسل آخر عند عبد الرزاق في مصنفه (ح/٣١١٤) قال: عن ابن عيينة، قال: أخبرني يعقوب بن زياد -هكذا في المطبوع، والصحيح زيد- التيمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... الحديث، وآخره: (**إذاً يكفيك الله هم الدنيا والآخرة**).

وهذا السند عند القاضي إسماعيل في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (ح/ ١٣).

فالحديث بهذه الشواهد المرسلة يقوى شأن الحديث إلى الحسن كما قال جماعة من أهل الصنعة.

وممن قواه وقبله:

ابن حجر في الفتح: (١١/ ١٦٨) فقال: سند حسن.

وكذلك المنذري في الترغيب والترهيب.

وصححه الألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب.

وآخرون.

أما فقه الحديث:

فهذا حديث عظيم في شأن الصلاة على النبي المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يبين فضل الانشغال بالصلاة عليه.

قوله: (**فكم أجعل لك من صلاتي**).

أي من دعائي، فإن الصلاة هي الدعاء، وهذا يدل على هذا الاستعمال من كلام الصحابة إذ يستعملون لفظ الصلاة على غير مصطلحها المعلوم عندهم، والأصل هو حمل الألفاظ على ما استقر عليه المصطلح، لكن يحمل على معنى لغوي محتمل بسبب القرينة، وهي هاهنا. فإن الصلاة المشروعة المعلومة فيها من الأذكار الواجبة والمستحبة ما لا يقوم بها غيرها، لوجوبها أو ركنيتها، كالفاتحة وأذكار السجود والركوع.

وأما ظن من توهم أن هذا الأمر يكون في كل دعاء فقد أبعد، وإليك السبب:

الحديث يبين سبب السؤال، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حضهم على ذكر الله في الليل، وأنذرهم القيامة، فعلم أن سؤال أبي رضي الله عنه عن دعاء الليل، وذكر الليل، إذ يسأله عن ذلك في مناسبته، فالأمر إذاً كما يقول ابن تيمية –كما ذكر هذا ابن القيم في جلاء الأفهام– وهو: جعل الصلاة على النبي في دعاء تام، وذلك في دعاء مخصوص في وقت مخصوص، وليس كل دعاء، ولا كل ذكر.

فمن كان له ورد فيه الدعاء في وقت ما، فشغلته الصلاة على النبي فيه، فهو مصيب لهذا الفضل.

وهذا المعنى يبعد اعتراض البعض في رد الحديث أنه يذهب فضل الأدعية الأخرى، والأذكار المنصوص عليها.

وأما ما فيه من الفضل: فقد تقدم فضل هذا الأمر، وهو انشغال المرء في دعائه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إذ ورد لفظان:

أولاهما: (يكفى همك ويغفر ذنبك)، وثانيهما: (يكفيك هم الدنيا والآخرة).

وهذان لفظان متحدا المعنى، فهم الآخرة متعلق بذنب المرء، وهم الدنيا كثير، ومطالبها عديدة، ولذلك ما فصله اللفظ من ذنب الآخرة هو عين ما أجمله في اللفظ الآخر.

وهذا المطلب الذي يناله الساعي يستغرق مطالب الدارين، بلا مثنوية، فلا يبقى لسؤاله عن حاجاته إلا وهو مقضي بالصلاة على الحبيب صلى الله عليه وسلم.

ولقد شغلت حيناً بسؤال الأحبة عن طرقهم في قضاء حوائجهم إن ألمت بهم مسألة، فكان البعض يذكر عن نفسه هذا الفعل، وأنه يديم الصلاة على الحبيب حتى تنجلي، وبعضهم يذكر عن نفسه أنه ينشغل بالفاتحة –وقد نصحت بها بعض الأحبة، فأسأل الله أن يعطيه سؤاله– وبعضهم يذكر عن نفسه انشغاله بالاستغفار حتى تزول، وهكذا.

فللعابدين طرقهم الكثيرة، والتي كلها موصلة للمطلوب بإذن الله تعالى، وفي ذلك نصوص.

والعبد وهو يعمل الطاعات يتوصل بها لحاجاته الدنيوية، وليس هذا مما يضر عبادته، بل هي مؤذنة أنه يثق بالله، ويسعى لرضاه بعمل الطاعة لإصابة حاجاته، وهذا لا يفعله إلا التقي العابد، فهو قد آمن بخبر الغيب، وسعى لها بوسائل الشرع، فحصل له أجر الطاعة، وإصابة المراد من حاجات الدنيا.

ولقد عجبت لبعضهم يعد هذا من نواقض الإخلاص لرب العالمين، ظاناً أن طلب مسائل الدنيا بما أخبر به النبي صلى الله عليه، وبعمل من أعمال النسك ضار بعبادته وإخلاصه، وهذا غلط، والقرآن حض على طاعات لإصابة منافع الدنيا، كقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ وكقوله: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾، وهذا الفضل لا يصيبه المرء بهذه الأعمال إلا إذا عملها مخلصاً لله، وبهذا يستقيم الفعل في كونه طاعة، وفي كونه وسيلة قضاء الحوائج.

وهل العبد في هذا إلا مصدقاً لخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ومؤمناً بالله، مطيعاً لأمره!

ويبقى القول في سر الربط بين الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وأن الحوائج تقضى بها.

فالأمر في سر الصلاة على النبي وفضلها في قوله صلى الله عليه وسلم: (**من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً**)[١].

---

[١] رواه أبو داود وصححه الألباني.

وصلاة الله على عبده رحمة وفضل وعطاء، ورحمته إن عمت العبد كما عم هو لسانه بأن يلهج ذاكراً لربه بطلبه الصلاة على رسول الله يعني كفاية الله له، والله يقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

وهذا المعنى قاله ابن القيم رحمه الله في جلاء الأفهام.

والصلاة على النبي فيها رقي الحبيب، وترتفع درجته بهذه الصلاة، والعبد كذلك، ومن ارتفاعه أن يخلص من حاجاته فتقضى، وهذا من نوع "الجزاء من جنس العمل"، وإن كان لكل واحد مرتبته في مطالبه، فمطلب النبي صلى الله عليه وسلم أن تصلي عليه، ومطلبك أن تقضى حاجاتك، وتزول همومك في الدارين.

ومن معاني هذا: أن الصلاة على الحبيب صلى الله عليه وسلم سبب لعودة الروح إليه كما في الحديث، حيث ترد إليه روحه فيرد السلام على من سلم عليه، ودعوة السلام من الحبيب لمن سلم عليه موجبة لزوال موانع السلام من الهموم.

وأعظم من ذلك كله: أن الصلاة على الحبيب فيها مرضاة الله تعالى، إذ فيها مشاركة الفعل الذي أخبر الله به عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وانشغال العبد بمطلب السيد وعمل السيد يعني تولي السيد مطالب العبد.

هذا ما احتمله المقام، ومثل هذا الحديث يشغل مئات الصفحات لو أراد المرء متابعة معانيه، ولكن إنما هي كلمة، وجزى الله خيراً من هيج الفقير لها، والحمد لله رب العالمين.

كلمة في حق كلمة (٦)

لآدم بن إياس رحمه الله

[٩ فبراير ٢٠١٨ – ٢٣ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال أبو علي المقدسي: "لما حضرت آدم بن إياس الوفاة ختم القرآن وهو مُسجًّى، ثم قال: بحِبِّي لك إلَّا رفقت بي في هذا المصرع، كنتُ أُؤَمّلك لهذا اليوم، كنتُ أرجوك. ثم قال: لا إله إلا والله، ومات".

(السير)

هذه المنازل الإيمانية، تقدم العمل الصالح حتى يحصل لها القرب من الله، وحينها يكون تقدمة الأفعال بين يدي الرجاء، لا على معنى المن والتكثر، لكن على معنى الرجاء والتوسل، فيذكرون ما علموه من قلوبهم، يرجون بهذه الأعمال وجه الله عند عملها، وبهذا يرونها على معنى السلامة من الرياء عند حضور الحاجة إليها.

تأمل ماذا قال عن قلبه، وما هي أعماله، وكيف أبان عنها في لحظة رحاء من الله رب العالمين:

يقول رحمه الله تعالى: (**بحبي لك**)، ففي لحظة اللقاء مع الله، ولحظة مفارقة الدنيا لا ينفع إلا الصدق، ولا يكون إلا هو، ولذلك أن يقول هذا الرجل الصالح -نحسبه والله حسيبه- هذه الكلمة الرائعة في هذا الموطن لهو دليل صدقها في نفسه.

إنه يحب الله، ويسأله بهذا الحب الذي يحبه الله، ولو فكرت في أعظم عبادات القلب لن تجد أعظم عمل من الحب لله.

المرء يحب الله لأنه يعلم محبوبه وجماله وحسن صفاته، والله تعالى له الأسماء الحسنى، وهو متصف بهذه الصفات التي يحبه خلقه من أجلها.

تبدأ عبادة الحب لربنا ابتداءً برؤية يد الإنعام، فكلما رأى العبد نعم المنعم، وما أعطاه، وما أسبغ عليه أحبه، ثم بترقي هذه الرؤية من النظر للنعمة إلى المنعم يصبح الحب أعظم وأقرب وأحسن وصفاً.

فبعد رؤية النعم، ترى صفات المنعم، ثم تعبده لأنه الله الذي كملت له الأسماء والصفات، فتحبه حب النظر له جل في علاه، وهذا من فهم العبد لنعمة النظر لربنا يوم القيامة، فالعبد في الجنة يرى النعم، فيفرح، لكن لما يرى وجه المنعم يكون هو يوم المزيد.

فهذا عبد أحب الله، وسأل الله بهذا الحب في لحظة حاجته لهذا المحبوب، وهو ادخر هذا الحب ليوم لا ينجده فيه إلا محبوبه رب السموات والأرض.

فهذه منزلة من منازل تعبد آدم بن إياس في كلمته الرائعة هذه.

قال رحمه الله: (**كنت أؤملك لهذا اليوم، كنت أرجوك**): هذا هو الاستعداد لحال الخروج من الدنيا، يعد له العدة، ويجهز له الركائب، ويملأ له الجراب استعداداً له، وها هو يبين أعظم ما استعد به؛ (**كنت أؤملك.. كنت أرجوك**).

والله إنها لكلمة لو تلاها المرء خالياً لأبكته إن فهم ما هي، فرددها خالياً بينك وبين الله: (**كنت أؤملك ... كنت أرجوك**)

واجعلها من دندنتك، ومن سميرك، تلهج بها لترى ذوقها حالاً لا مقالاً فقط.

قف عليها، لتعلم أي نفس مخبتة قالتها، وماذا كان شغلها في حياتها: إنها تعمل وترجو، وتعمل وتدخر، فهي تؤمل الخير بربها، وتؤمل العفو منه، والرفق به (**بحبي لك إلا رفقت بي**).

يا الله! أي نفس هذه التي صاغت هذا الكلام تخاطب بها العظيم الكريم؛ رب العالمين.

والله إنها كلمات أشبه بركائب الوصول، ونجائب الحمل الثقيل لأعظم المهمات وأغلى المطالب.

أؤملك..

أرجوك..

هذه تحتاج لذوق نفس لا فكرة ذهن فقط، وتحتاج إلى ترداد نفس باكية لا لاهية، لتذوق لذة خطاب رب العالمين بها.

في هذه الكلمات تختبئ ذكريات الفعل طاعة لرب العالمين، وذكريات نصب القدم طاعة وقراءة وقياماً، وذكريات الدعاء سجوداً والعين باكية، وذكريات صيام الهواجر، وذكريات صدقات السر، وذكريات القلب الرطب، والنفس التي تنصب نفسها للقاء الله تعالى.

هذا كله تعلمه من علمك كيف مات، فأنت ترى أنه ختم القرآن وهو مسجى في فراش الموت، والمرء يموت على ما عاش عليه، فهذا عاش مع القرآن، وهو نعم الصاحب الذي يرتفقه السالكون صعداً لمقامات العبودية والإخبات.

رحم الله آدم بن إياس فقد مات على قول: لا إله إلا الله، فهو حال ينبئ أنه من أهل الجنة، رجاءً واستبشاراً لا تألياً على الله، ولا جزماً بحال أحد، ولا مقام إنسان، فهذا حق الله لا حق أحد من العالمين، هو الذي يحاسب الناس، وبرحمته يرحمهم الله ويدخلهم الجنة جل في علاه، لكنها البشارات التي أخبر عنها النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

تفكر في نفسك، هل يمكن لك أن تقولها وأنت في ثياب الموت ترتقبه في لحظتك تلك؟

اللهم رحمتك.

كلمة في حق كلمة (٧)

للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

[١١ فبراير ٢٠١٨ – ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قيل للإمام أحمد رحمه الله: هل طلبت العلم لله؟ قال: أما لله فعزيز، ولكن شيء حبب إلي فطلبته.

(البداية والنهاية).

هذه الكلمة لها دلالات متعددة، تصلح لطالب علم التربية والتسليك أن يعتني بها، ذلك لجمعها الكثير من المعاني، فاشدد عليها، وتأمل:

للنفوس مطالبها ، وما حبب إليها من معاني أو أشياء، وهذه المطالب تنشأ فطرة في النفس، أو تربى عليها تسليماً من الآباء والبيئة التي نشأ فيها، فإن رأى الطفل عملاً ما يحبه الناس، ويبجلون صاحبه نزعت نفسه لطلبه، والسعي لأن يكون من أهله، وهذا يعلم من المراقبة، ومن تتبع أفراد الناس وما رغباتهم يرى هذا النزوع في الأطفال، فمرة تراها شيئاً شغفت بشيء من عجائب ما يعمل، وهي بعيدة عن بيئته، أو لا يتنافس الناس فيه، ومرة تراها راغبة بما كثر ذكره من الناس، وبهذا تسمو همة الطفل للعمل.

فالنفس في البداية ومطالبها وما تشتهيه، ثم بعد ذلك تكون المعالي.

فهذا الإمام أحمد حبب إليه الحديث والعلم، وهو من الاختيار الإلهي له، ومن اختير لشيء من هذه المعالي فطرة أو تربية فهو على قدم خير وهدى.

حتى الذين يجبرون على عمل ليس من نيتهم، ولا هو من رغبة نفوسهم، كمن ساقه والده له، أو اضطر لخوضه لظرف ما، أو أجبرته قضية حياة لعمل من أعمال الخير فهو قد ينزع إليه على المعنى الأول له، لكن لا يجوز البقاء على هذا المنزع، بل عليه أن يرقى.

البدايات في البشرية لها أحكامها الخلقية والظرفية، فالطفل لا يعرف في الابتداء إلا المحسوسات ثم ترقى همته إلى عالم المعاني والتي هي أعظم مطالب العلم، أي تحصيل الحكمة.

لا تطلب في الابتداء من الناس إلا صواب الطريق وحسنه، ثم بعد ذلك يبدأ ما يسمى بالتسليك.

هذا التسليك هو الذي يوصل لأحسن المقاصد وخير التربية وأعظم المطلوبات وهو رضى الله تعالى.

في الابتداء قد تأتي به وأنت تهز له شيئاً تراه عينه، وتشتهيه نفسه، لكن تبيت في نفسك صيده لأعظم الرتب وخير ما يسعى إليه البشر، بل هو ما خلقوا له.

النفوس في الابتداء طفلة صغيرة، تأسرها حلوى اللسان، وحب التملك، وجمال المناظر، ثم بفعل التربية والتسليك ترقى لما خلقت له من رضى الرحمن.

هذا شيء يعتنى به في التربية، ويهتم به الحكماء.

في الابتداء يهتم أن يقوم الناس في صف الصواب كما هو في ظاهره، وفي الأثناء والانتهاء تُصلح البواطن بالنظر إلى المعاني والدار الآخرة.

في الابتداء يؤتى بالطفل لقراءة القرآن من أجل جائزة ينالها إن حفظ، ويشجع بشيء مما يحبه، إذ لا تدرك نفسه إلا ما يراه ويشعر به، ثم بعد ذلك وخلال هذا يعلم معنى الإخلاص وأحاديث فضل القرآن، ومعنى الحسنة، وذكر الجنة والنار وبهذا يكون الصلاح ومسلك الصالحين.

أنت تحتاج في البداية أن تقيم المرء على صواب الفعل بما يريده، ثم تصاغ نفسه بالتعليم والتسليك لما يريده الله تعالى.

هذا في الواحد وفي الجماعات كذلك.

لتقيم الناس على عمل ما ابحث عن نقطة هامة في نفوسهم وحياتهم لتأخذهم منها للمعاني، فأنت تبدأ بهم من خلال ما أحبته نفوسهم وما رغبت به، فمن عاش مقهوراً أحب العزة واشتهاها، فهذا باب أخذه للجهاد، لتبعده عن سبل الضلالة في تحصيل العزة، وهي كثيرة في الخلق بعدد شهواتهم، ولكن

أنت من خلال ما يتمنى أخذته للجهاد في سبيل الله، لتضع قضيته ضمن دائرة الإيمان، ورويداً رويداً يكون دينه كله لله.

إنه التسليك، وإنه صيد الخلق لتعبيدهم لله، ورفعة نفوسهم من شهواتها لمقصد رضى الله تعالى.

من هنا قال العلماء إنه قلما خلا جهاد بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم من مطلب دنيوي، فيه اشتراك النيات، أي نزولها عن المرتبة الأحب إلى الله، لكن بها دخل الناس في دين الله أفواجاً، وصار هؤلاء الداخلون أئمة الهدى والعلم .

في كلمة أحمد رحمه الله فضل أن تحب النفوس شيئاً جميلاً، حبيباً لرب العالمين في نفسه، وهو حبيب لنفس صاحبه لجهة من الجهات، فهذا مدخل من مداخل الطاعة الذي يحسن استغلاله في نفس صاحبه لأخذه عبداً لله.

إن النفوس التي تتوق للخير، كما هو في خلق الله يوم خلقه، كمن يحب الصدق، ويحب العدل، ويحب العلم، هذه نفوس هي أقرب للحق من تلك النفوس المعرضة عن جمال الأشياء كما هي، فهذه خطوتها واحدة للتعبد، وهو جعل هذا الفعل لله، فهي في الابتداء مطالب نفس تحب، وفي الختام مطالب رب العالمين لما يحب، ولكن النفوس الساقطة في محبتها تحتاج أولاً إلى تصليح معيارها في الحب والكره، وتلك والله مهمة عصيبة، وليست بالسهلة، ولذلك اختار الله العرب لحسن قيمهم التي هم عليها في الجاهلية، فجاء الإسلام متمماً لها، ثم رافعاً مقاصدها لطلب الآخرة.

اليوم أمتنا مطالبها عظيمة، هي في نفسها حسنة، ففلسطين مطلب شعوبنا، وطلب الحرية والخروج من القهر مطلبها، وهكذا، فما علينا إلا رفع شعار الإسلام لحل هذه القضايا، ليأتي الناس إليك، ثم تسلكهم لطلب الجنان.

جاءت جموع من الشباب حباً في جهاد الطواغيت، وللخروج من جورهم وطغيانهم، فما لبثوا إلا قليلاً حتى صارت الآخرة هي المقصد دون سواها، وغيرها تبع لها، وإن شئت فانظر إلى طلاب الشهادة والاستشهاديين، حينها تعلم حسن هذا الطريق وصوابه.

دع الناس يأتون إليك لأن ما عندك يحبونه من جهة أنفسهم، ثم هم بعد ذلك يفعلون هذا كله لله.

هذا الطريق اليوم طريق بلاء، وفتن وموت، لا يصلح معه إلا الإخلاص، وهو تحقيق ما قاله العلماء: **طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله.**

وقالوا: **طلبنا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزقنا الله النية بعد ذلك**. ويقصدون الإخلاص.

اللهم اجعلنا لك يا رب العالمين.

كلمة في حق كلمة (٨)

كلمة في حديث جليل

[١٤ فبراير ٢٠١٨ – ٢٨ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله تعالى: من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[١].

لست أدري من أين يأتي المرء هذا الكلام الجليل، ومن أين يطرقه!

هذا كلام كل ما فيه حسن، وكل جهاته مشوقة، يطرق القلب طرق الحب والرأفة والكرم.

الدخول على الله له طرق، فمنها طرق الخشية (**وعين بكت من خشية الله**)[٢] ومن طرق الحمد والشكر (**أفلا أكون عبداً شكوراً**)[٣]، وأبواب وأبواب، كلها هي مظهر تحقق العبد بهذا الوصف اختياراً منه، كما هو عبد الله قدراً بغير إرادة منه، لكنها كلها -أي هذه الطرق- تصل إلى هذا الباب الذي يعلمنا إياه هذا الحديث.

هنا اللقاء، وهنا الوصل وهنا آخر المقامات، وهو أن تصل إليه، وأن تعرف من هو، وأن تبصر بقلبك كل المعاني التي تجمع الحق والجمال.

حين تأتي أنت، تأتي عابداً مخبتاً ساعياً إليه وحده، لا تريد إلا وجهه، ولا تبتغي غيره، لأنه هو الله رب كل شيء، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، حينها هو يأتي إليك..

أنت تأتي طائعاً باكياً سائلاً، هو يأتيك بمطالبك وأعظم من مطالبك، وأكبر من مقاصدك، لأنه الكريم.

---

[١] رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

[٢] صححه الألباني في صحيح الترغيب وصحيح الجامع.

[٣] رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

فكيف إن جئت إليه تطلبه هو، أن تعرفه في قلبك حق المعرفة، وأن تؤمن به حق الإيمان، وأن تبصر حكمته في الوجود، وأن ترى يده وراء كل موجود، تسعى إلى أكمل ما يحقق لك العبودية له: ذوق الحال وتحقق العلم في القلب والجوارح واللسان.

إياك أن يخطر على بالك وأنت تدعوه أنك تنبهه لوجودك، وأنك تريد لفت نظره إليك، فهذا جهل منك، وهذا ضعف في علمك وحالك، بل تأمل ماذا قال عنه أعظم العالمين به، وكيف كان قبل أن تدعوه: (**هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**)[١] فما أنت بندائك ودعائك إلا مستجيباً لندائه، فهو المقبل عليك قبل إقبالك، وهو الناظر إليك وأنت في غفلتك قبل تنبهك، ثم هو برحمته وغناه عنك وبعلمه ضعفك لا يطلب منك إلا أن ترتقي درجة درجة، ومع كل درجة يأتيك أكثر مما أتيته، ليس كحال من لا يقبل عليك حتى تأتي بالكثير مما يحركه، فيطلب منك حالاً خاصة لا يقدر عليها الضعفاء، لا والله بل هو جل في علاه يعلم ضعفك، فيأتيك بأي حال كنت من القوة والضعف، وكلما زدت زاد، وكلما أكثرت أكثر، فالله أكثر.

قال ابن القيم، وهو رجل صاحب ذوق وحال: "وهذا الموضع هو سر السلوك وحقيقة العبودية، وهو معنى الوصول الذي يدندن حوله القوم"[٢].

هذا التقرب يعني انخلاعك من حال إلى حال، فمن غفلة لذكر، ومن أعراض لإقبال، ومن غياب لحضور.

هذا التقرب يعني أنك بعت فاشترى، وعاهدت فأوفيت، وشهدت بالقول فكان لك رؤية ما تشهد.

هذا التقرب يعني غيابك عما تريد، وإقبالك عما يريد، وخروجك من داعية هواك إلى تحقق عبداً لرب العالمين.

ثم اعلم أن هذا التقرب له أزمنة خاصة ترفع قيمة الفعل وإن قل، فركعتان في جوف الليل خير مما سواهما من النفل، وساعة بين الصفين أعظم من كل الساعات في غيرها، وكلمة ذكر بين الغافلين محبوبة

[١] صححه الألباني في صحيح الجامع.
[٢] مدارج السالكين (٣/٢٧١).

لمولاها، وعبادة في الهرج كهجرة إلى رسول رب العالمين، فاحرص أن تفهم نفس الرب وماذا يحب، وليكن نظرك لما يحب، وماذا يفرحه، حينها تكون عبداً يستحق القرب.

هذا القرب يعطيك العلم به، والعلم بما يحب ويكره، يعني العلم بشرعه، ويعطيك العلم بحكمته، فيكون لك طاقة من فراسة، وطاقة من صبر، وطاقة من ذوق وغياب عن القاذورات، فما أنت حينها إلا قريباً من رب العالمين: يرعاك ويعطيك ويرحمك وينصرك ذلك لأنه يحبك.

إذا كانت تقتلك المعصية، فتشد عليك بألمها، وتسوؤك الغفلة فترهقك بآثارها، فاعلم أن هناك منفذاً يخرجك من ذلك كله وهو الهروب إليه ركضاً وإسراعاً (**وأعوذ بك منك**).

لا تلتفت إلا له، ومرن نفسك أن تراقبه، وان تسعى لفرحه، بذكرك له، وحبك له، وخوفك منه.

(من أتأني يمشي أتيته هرولة)

هل لامست قلبك هذه الكلمة، فعلمها هو تذوقها حالاً بأن تديم ذكره، وأن تجاهد في سبيله، وأن تلتقط محاسن من سبقوك وأعظمهم رسل الله، فتسير سيرهم، واسلك مسالكهم.

كرر هذه الكلمة لتعرف معناها، وقد صدق من قال: كرر لتفهم، وعلل لتحفظ.

أنت عبد له قلباً وجسداً، وقد أقامك على الضعف من كل وجه، وأشعرك به في كل نفس، ثم ناداك: عبدي، إلي تعال وأقبل، فأنا لك محب ولك مجيب .

لله الحمد كله وله الشكر كله. اللهم اغفر لنا وارحمنا.

كلمة في حق كلمة (٩)

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

[١٥ فبراير ٢٠١٨ – ٢٩ جمادى الأولى ١٤٣٩]

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فإنه ما من طائفة إلا وفي بعضهم من يقول أقوالاً ظاهرها الفساد، وهي التي يحفظها من ينفر عنهم ويشنع بها عليهم، وإن كان أكثرهم ينكرها ويدفعها".

(تفسير سورة الإخلاص، الفتاوى ١٧ /٣٦٢).

العلم لا ينفع معه إلا أمران: الفهم، والعدل، والأول مجانب للغباء والغفلة واعتماد الظواهر دون المقاصد والبواطن، والثاني مجانب للظلم والكذب والافتراء على الموافق والمخالف.

حين تنقل لأحدهم قولاً فإياك أن تضعه في غير سياقه، خاصة حين تنقل عن المخالف، فيدفعك الهوى لتوجيهه إلى أسوأ ما يحمل عليه الكلام لتكفره وتضلله، فتتبع الذين فعلوا هذا مع الأنبياء في التنفير منهم والكذب عليهم، بل الواجب عليك أن تنصفه، وتعدل معه، وهذا العدل يوجب عليك أن تقيم كلماته على معنى ما يعتقد، وما يشهد له حاله وأصوله وقواعده، فليس القصد في العلم والمراجعة والبيان إلا الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا إسقاط أحد ولا رفعة أحد، فالله هو المسعر، يرفع ويخفض، والحق الذي يدعو إليه أتباع الأنبياء هو حق في نفسه، لا يحتاج لباطل لينصر، ولا إلى سب أحد ليعرف جماله، ولا إلى الفرية على الآخرين ليتضح معانيه، بل هو العدل الذي يقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، ذلك لأن الله عدل؛ يحب العدل، ويشرع العدل.

أهل السنة وهم طائفة الحق، ولبعض علمائهم أقوال شنيعة في العلم والعمل، لم يحملها الناس إلا على معنى حكمة الله في تخطئة الكبار مهما علت مراتبهم، فلم يسيروا عليها، ولم يتبعهم الناس، واستغفروا لهم، فيأتي المبتدع فيجعلها دين أهل السنة ومذهبهم، فيظلمهم ويبهتهم ويكذب عليهم.

وهكذا في الجماعات والطوائف؛ يقول بعضهم أقوالاً يستنكرها الكبار والقادة، فيأتي الظالم لهم ويلبس الجميع هذا القول، من أجل أن يشفي غيظه، وينصر نفسه، متشهياً أن يسقط الخصم في الغلط، ليكون له المقال الشديد فيهم.

هذه مرتبة نفوس صغيرة، وحال أقوام ليسوا من الأولياء ولا الصالحين، ولا هم من زمرة أهل العلم، فإن ظهروا يوماً فظهورهم على معنى الفتنة للناس ثم يصير أمرهم إلى ذهاب.

قالوا يوماً لأحد أهل العلم: فلان المبتدع يجلس الناس إليه، فقال: من جلس جلس الناس إليه، ولكن تموت أقوالهم بموتهم، وأما أهل السنة فذكرهم باق.

وهكذا، من تكلم سيجد سامعاً، وسيلحق به من على شاكلته، ولكن العبرة بالحق الذي قال الله فيه: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾

تأمل كلمة الإمام: (**يحفظها من ينفر عنهم ويشنع عليهم**) لتعلم حال الناس مع حكاية الغلط عن الخصوم، فهمهم حفظ الغلط وتقفر البحث عنه لنشره وتعميمه، ظالما للناس وعلمهم وأقوالهم وأحوالهم.

ثم لو جاء من أنكرها من الطوائف أو الجماعات لم يهتم، ولم ينشر، بل ربما لم يفرح بهذا، إذ في ذلك قضاء على حسد وحقد نفسه.

ثم من العدل أن تقيم أقوال الناس على دينهم، وأصولهم، فهل يتصور في مسلم معتزلياً كان أم أشعرياً مثلاً أن يرد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً كرد الزنديق والكافر!

ثم هل تتخيل أو تتصور أن رجلاً سجن من أجل إقامة الشريعة، وعرض نفسه للسيف والقتل من أجل إعمالها في الأرض تهون عليه حتى يجعلها كما يجعل الزنديق شأنها، وأنها خيار بين بدائل كثيرة!

ثم هل تتخيل أن يقول رجل هو تحت الموت من أجل دين الله، باع نفسه لله ولإقامة دين الله يبيع آخرته من أجل دنياه!

كل هذا محتمل في قلة تنتكس، تخاف الموت فتهرب، وتساوم فترضى، لكن الأصل هو إحسان الظن في هؤلاء، وحمل أقوالهم وأفعالهم على معنى الحق ما استطعت لذلك سبيلاً، حتى إذا بان الأمر بيان الشمس بلا سحاب رددته وحملت عليه بسيف الشرع والدين.

واعلم أن الطوائف لا يؤخذ مذاهبها من صغارها وجهالها، ولا من التابعين فيها، بل من كبرائهم، وعلمائهم، وهذا لا يعني أن علمائهم لا تصيبهم جهالة اللسان فيخطؤون في المقالة، وذلك في زمان ضعف فيه اللسان، وكثر على ألسنة الناس غلطه، وحين يقع لفظ موهم أو غالب عليه الغلط رد معناه إلى ما تعلم من معانيه عند هذه الطائفة، لأن هذا هو العدل الذي أمرنا الله عز وجل بإقامته.

أرجع فروع الكلام عند المخالف لأصوله، وأعد مجملاته إلى تفصيله، وحاكم اللفظ الناد إلى ما شرحه وبينه، ثم لا تنس أنك تتعامل مع مسلم يريد تحقيق مراد الله في نفسه ما استطاع سبيلاً.

تجميع كلام الخصوم ووضعه في سياق لم يرده صاحبه أشبه بمن جمع للإمام أحمد كلام الغلط والرخص والتأويل في فقه الفقهاء، فقدمه إليه، فسمى الإمام أحمد هذا الكتاب بكتاب الزندقة.

ثم تعلم أن لا تكون فقط عالماً بأخطاء الناس بل لا تنس وأنت تقول أغلاطهم أن تذكر الناس بفضائلهم ليعلم القارئ أنك صاحب عدل وسنة، وأنه يهمك حب المسلم كما يهمك بغض الغلط والبدعة.

وعليك أن تنتبه لنفسك، فإن لم تكن عالماً بأصول الناس وأقوالهم الكلية فإياك أن تنتقد فروع كلامهم، لأنك إن فعلت ظلمت وقصرت ولم تبلغ في النصح غاية الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

رحم الله ابن تيمية، وألحقنا به على خير.

كلمة في حق كلمة (١٠)

للإمام الشافعي رحمه الله

[١٨ فبراير ٢٠١٨ – ٢ جمادى الأخرى ١٤٣٩]

قال الشافعي رحمه الله تعالى: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا"

(البرهان للزركشي، نسخة عطا، ١/٢١).

اخترت هذا اللفظ لزيادة فيه، وهو قوله: (**وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا**)، وإلا فقد رواها السيوطي[1] بلفظ: (**جميع ما تقوله الأئمة**) ، وهو لفظ أليق وأقوى.

هذه كلمة علم وتربية، وكلمة ذوق وفهم، ترسي لدى الناظر مقام الشافعي في ترتيب الكليات من الجزئيات، هذا العلم الذي كان فيه الشافعي الرجل الذي لا يجارى، والناس ينسجون على منواله، ولولا هذه العقلية الخاصة، المهتدية بنور الوحي لما أخرج للناس كتابه الرسالة، الكتاب الذي سماه عبد الرحمن بن مهدي: كتاب السحر.

قوله: (**وجميع السنة شرح للقرآن**)، كلمة نسج عليها ابن القيم رحمه الله، والشاطبي، وصار عند ابن القيم ميزان فقه الرجل كيفية إعادة الحديث لمعاني القرآن، ينظر فيه فرعاً للكتاب، وقد نازعهم في هذا أقوام، وكتب بعض المتأخرين في رد هذا المعنى كتباً، خالطها بعض ضعف في إدراك هذه الكلمة، ولم يعرفوا مراد العالمين بها.

هذه الكلمة يشتق منها ما خالفه الظاهرية –ومن تبعهم من المعاصرين– من وضع السنة قريناً للكتاب، غير منتبهين إلى طريقة الصحابة في ترتيب الأدلة، لا بالفهم عليهم علماً، ولا بمعرفة طريقة الصحابة رضي الله عنهم في تربية الناس، وذلك بربطهم بالقرآن أولاً، ليكون همُّ العالم الناظر للمعاني أن

---

[1] انظر: نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان (ص٣٩).

يتوجه للكتاب، ولذلك قال الشافعي رحمه الله في هذا المعنى: ليس تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها.

فحين يقال لطالب العلم: ابدأ هنا، وحاول التنقيب على الحل، فسيكون جهده عظيم القدر من كل باب؛ وأعظمها حالة التعبد الذي يعيشه هذا العالم، فيجتمع فيه التعبد من كل جهة؛ جهة النظر في الكتاب، وجهة استنباط العلم منه، وجهة قراءته، وبهذا ينشأ لديه مزاج القرآن، وهو من معاني ما قاله الشافعي وهو يرجح بعض المعاني على غيرها بقوله: **(فوافق هذا ظاهر القرآن)**.

وقال الشافعي: "وقد كانت لرسول الله في هذا سنناً ليست نصاً في القرآن، أبان رسول الله عن الله معنى ما أراد منها، وتكلم المسلمون في أشياء من فروعها، لم يسنّ رسول الله فيها سنة منصوصة"[1].

وقد يقع في وهلة متسرع أن هذا متناقض من القول، والأمر ليس كذلك، فالسنة شرح للقرآن، لا أن القرآن مستغن عن شرح السنة، كما أن السنة يرويها من لا يعلم معناها لمن يعلم معناها فهي تشرح من الأئمة.

وقوله: (**وتكلم المسلمون في أشياء من فروعها...**) تعلمنا أنّ الاجتهاد واجب، وأن هذه المسائل هي التي تسمى مسائل الاجتهاد، لا غير مما فيه نص، هو بمرتبته الذي سمي به: النص.

والكلام عن وجوب النظر للقرآن أولاً، ليبقى في نفس العابد المجتهد هذا المعنى من التعظيم، وليبقى نفَس العابد الاجتهاد في الغزير العظيم قبل أن يرد ما بعده.

هذا معنى أصولي تربوي، وما بعده معنى ذوقي تعبدي:

انتبه لكلمات هذا الفحل الجهبذ!

(**وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا**).

نفْس الرب جل في علاه ترضى وتحب وتكره وتبغض.

نفس الرب سبحانه تعذب وتنعم.

---

[1] الرسالة (ص٤٤٠).

نفس الرب تعذر وتحب العذر.

هذه نفس لها الصفات، ولها الأسماء، ولا يعرف العباد هذا إلا من كلامه، فكلامه ينبئ العبد عن ربه، ما هي أسماؤه، وما هي صفاته، وتخبر ما يحب وما يكره، ومن يعاقب ومن ينعم، ومن يعطي ومن يمنع، وكيف تجري الأقدار في الوجود على وفق معاني نفسه جل في علاه، فمنع من أجل البلاء، وعطاء من أجل الحب والرضى، وعطاء من أجل المكر، وهكذا تجري شرائعه على وفق حبه وكرهه، وتجري أقداره على وفق حكمته ورضاه وبغضه، فالعابد الساعي لرضاه يستجيب لما يحب، ويحذر مما يبغض، ويسعى جهده أن يرضي الله وأن يفرحه، فإن أذنب عاد إليه، حباً له وخوفاً منه، ومن غاب عنه نص في مسألة لم يغب عنه معاني ما يحب ومعاني ما يكره، فهو يجتهد على سننها ومعانيها، يسعى لتقوى الله، عابداً له، لأن معنى الشريعة كما قاله العالمون بربهم هو تحقيق العبودية له، أي أن يحققوا حبه ورضاه وفرحه.

اذهب للقرآن سائلاً عما يحب ويكره رب العالمين، ساعياً أن يحبك، وأن يعيذك من غضبه، حينها تصب أو تكاد، وأنت حينها بين حدين: الأجر والأجرين.

العبادة حين يكون مقصودها أن تفرح الله وأن ترضيه، ترتقي في مقامات العبودية، وحينها تغيب نفسك، فلا هوى، وحينها يغيب الناس، فلا رياء، وحينها تكون مخلصاً لرب العالمين.

إياك أن تشكو سبب قلة الخشوع وأنت تخطئ باب الدخول على الله، فإحسان الدخول عليه من باب طلب حبه وفرحه ورضاه يوصلك لأعلى المراتب.

كل كلمة، كل خطوة، كل غمضة عين، كل خاطرة نفس اجعلها سبباً لفرح الرب، لما تعلم منه ما الذي يفرحه، فاعلاً لها، متجنباً لضدها، حتى لا تغضبه.

هذه المعاني مبنية على علمك به أنه الرحيم، وأنه القدوس، وأنه السلام، وأنه الرؤوف، وحين تغيب عن قلبك حب من له هده الصفات فقومها بالزجر والتكليف والإتعاب، فعليك بالصوم وقيام الليل ودوام الذكر وكثرة قراءة القرآن، حينها تستقيم نفسك على حب الله لذاته، بعد أن تحبه لصفاته.

من لم يلتفت لارتباط النسك بنفس الرب ضاعت طريقه، وفقد السبيل لأعظم طرق التقرب إليه.

أئمتنا لم يكونوا علماء كلمات فقط، لكنهم أصحاب أذواق للمعاني القلبية، فبها أحبهم الله، وحطوا الرحال على مقام: ولك العتبى حتى ترضى.

كلمة في حق كلمة (١١)

للإمام أبي يوسف القاضي رحمه الله

[٢٢ فبراير ٢٠١٨ – ٦ جمادى الأخرى ١٤٣٩]

قال أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة، رحمهما الله تعالى: "لو استطعت أن أشاطركم ما في قلبي لفعلت".

هذا نفس نبوي، موروث من ميراث الحبيب صلى الله عليه وسلم، ومقتبس من حاله الشريف، لا يقدر عليه إلا الأتقياء، وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وقال سبحانه جل في علاه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، فهذا نفس يجمع خصالاً هي من أعظم الخصال وأبر الصفات، ويكشف عن نفس عظيمة، تصلح لتربية الخلق وارتقاء درجة الإمامة.

إن أول خصلة تكشفها هذه الكلمات خصلة الكرم والعطاء، فأبو يوسف رحمه الله معروف عنه الصبر على التعليم، والكرم وجود النفس، وإن أعظم ما يجود به المرء هو العلم، وأبو يوسف رحمه الله تعالى يشير إلى بعض نوع العلم، وهو ما خفي على السامع، وشق على بعض الطلبة إدراكه، فهو يرقق لهم الكلام، ويصبر عليهم في العطاء كل هذا ليفهموا عليه، ويعرفوا غور ما يريد، ثم هو يقول لهم هذه الكلمات: **لو استطعت أن أشاطركم ما في قلبي لفعلت**.

وخصلة حب العطاء، ونشر العلم، وإصابته للقلوب هي خصلة نبوية شريفة، فهذا القرآن الكريم يكشف حال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم معها، وهو في تمنيه هذا، وحزنه أن لا يصيب ما عنده قلوب السامعين المعرضين عنه يكاد يهلك نفسه، والله يسليه أن هذا من جهلهم وفسادهم، لا من ضعف تبليغك، ولا لشكهم في ما تقول.

والخصلة الثانية التي تكشفها هذه الكلمات هي خصلة الحب للآخرين؛ فهو لا يأخذ العلم ترفعاً عليهم، فهو لا يأخذ العلم ليماري به أهله، ولا ليترفع به على غيره، ولكن ليضعه في قلوب الخلق، حباً

لهم، وسعياً في رفعتهم: لا يتمنى خطأهم ليصحح ويثرب، ولا يسعى لسب ولا شتم، ولكن هو يحبهم، ويترفق بهم، ليصيبوا هذا العلم، وهذه صفة العالم الذي يسعى لتحقيق معنى العلم في نفسه والآخرين.

وخصلة ثالثة في هذه الكلمة وهي عدم الحسد، فمن أحب للناس ما يحب لنفسه فقد خرج من هذه الخصلة المذمومة، وهي من أعظم أسباب الخصومات بين الناس، وما قتل ابن آدم أخاه إلا بدافع هذه الخصلة القبيحة المذمومة، وهي جريمة بين الناس عامة، وأعظم سفهاً وجرماً بين طلبة العلم والدعاة، وما تراه اليوم من قلة الأخوة والحب بينهم إلا لهذا المرض، ولا يغرنك أكاذيبهم أنهم ينتصرون للدين والعلم في هذه الردود والخصومات، فهو كذب يعلمه الناس من أنفسهم، بل هو الحسد الضارب بجرانه في قلوبهم.

ينشر أحدهم كتاباً فيحسده الآخرون، ويتكلم الكلمة في العلم فلا يراها الآخر إلا من وجه الغلط، ولو احتملت ألف وجه صحيح، زاعماً أنه يقوم الخطأ، ويصلح الكلمة، وما الحال على الحقيقة إلا صراخاً: ها أنا ذا.

لو تفكر عاقل في حال من دخل في أبواب العلم والدعوة لرأى أن الخصومات بينهم أشد من خصومة المرابين، وأنه إن سلم بينهم وقت من خصومة لرأيت أنها لا تدوم، وسرعان ما تنماث ذاهبة، وذلك لحسد القلوب، ويلقى الشر يرتقي بينهما من خلاف يسير حتى يدخل في باب الاعتقاد والإيمان، ليسهل القذف والسب والطعن.

هذه الكلمة من إمام مهدي، وعالم قاضي تصلح ميزاناً لنفس الإنسان من داخله، يقول أخوه الكلمة من الخير فيفرح لها، ويقول هو الكلمة من الخير فيتمنى أن قالها أخوه، أو أنها هي عند أخيه في قلبه.

هكذا وصل لنا علم السلف، وهكذا انتشرت خصالهم في العالمين، وهكذا صار مشايخ هذا الزمان سبباً في افتراق الناس، وتحزبهم على مشايخهم، وبدل أن يقللوا الشر صاروا هم الشر نفسه، يوقدونه في المساكين الذين جاءوا إلى كلماتهم لتهديبهم فصنعت منهم أزلام شر ووقود فساد، وطبل فتنة.

كان من سلف يرسل ابنه للعالم ليتعلم منه سمت التقوى والصدق والحكمة، واليوم لو جلس إلى أحدهم أو إلى كلماته لما رأى إلا الحسد والطعن والتعيير وجمع المثالب.

ذهـــبَ الـــذينَ يعـــاشُ في أكنـــافهمْ   وبَقيـــتُ في خَلْـــفٍ كجِلـــدِ الأجـــرَبِ

رحم الله سلفنا، وألحقنا بهم على خير وتقى.

كلمة في حق كلمة (١٢)

للدكتور أيمن البلوي حفظه الله

[٢٣ فبراير ٢٠١٨ – ٧ جمادى الأخرى ١٤٣٩]

قال الدكتور أيمن البلوي حفظه الله تعالى: "لا يستجاب دعاء العبد أحياناً لضعف الإرسال، وقد لا يَفهم صورة الاستجابة لضعف الاستقبال".

كلمة حكيمة من قماشة فقه السلف، نفع الله بها، وغفر الله لقائلها ورفع درجته في الصالحين.

أول ما في هذه الكلمة من معاني الخير: إحسان الظن بالله، فهو لا يتهم ربه، ولكن يتهم نفسه، وإحسان الظن بالله من أعظم القرب إليه جل في علاه، وهو لا يفعل ولا يقول إلا الحق كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو سبحانه "رحمته سبقت غضبه " تقدست أسماؤه وأفعاله، وخيره على العبد أعظم مما يحتاجون، وأكثر، وأعظم مما يستحقون وأكثر، وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾.

والعبد في مقام الشكر يعلم هذا من حياته، فعنده من النعم أعظم مما حلم وتفكر، وأعطي منها أكثر مما يحتاج من طعام ولباس ومسكن، ولذلك هو مع الأقدار التي تصيبه لائماً نفسه مقرعاً إياها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

حين يدعو المرء ربه، فإن الله يسمعه، حتى لو خافت أو أسر، حتى وهو في جوف حجر، والشيخ لم يرد من معنى ضعف الإرسال ظاهر اللفظ في أن الله يحتاج للصراخ ليسمع له، فالله سبحانه وتعالى هو السميع البصير، وهو القائل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وإنما أراد الشيخ ضعف الحوامل للدعاء، فالله يقول: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي يرفع الدعاء كما في بعض ما قيل في هذه الآية، فالدعاء يحتاج لمن يرفعه من العمل الصالح، وحين يضعف الحامل من العمل الصالح فهو لا يصل إلى ما يحب الله تعالى له من الشروط فيوقفه حتى يحمل حملاً قوياً

من العمل الصالح، ومن تتابع الدعاء وكثرته، فإن الله تعالى يحب العبد اللحوح، وكان صلى الله عليه وسلم يناشد الله مناشدة الغريق، تواضعاً، وذلة لربه، وإخباتاً له، كما فعل صلى الله عليه وسلم في عريش بدر، حتى قال له الصديق رضي الله عنه شفقة عليه: "**كفاك مناشدتك ربك**"[1].

فالعبد حاله في الدعاء حال الغريق الذي يستغيث لينجو، فهو صارخ بقلبه، باكياً بعينه، متواضع بسمته، بل ذليل وهو رافع أكف الضراعة له سبحانه.

كل هذه هي من مقويات الإرسال حسب لفظ الشيخ، جزاه الله خيراً.

يقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ وذلك تعليماً لهذه الأمة أن لا تقدم طلباتها إلا بالوسيلة المحبوبة، وبالحوامل الصحيحة القوية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾.

وأما قول الشيخ: (**وقد لا يفهم صورة الاستجابة لضعف الاستقبال**)، فهذه كلمة حال راقية، وذوق وإدراك، والمرء يغبط الشيخ عليها، لمعناها العظيم، وحسن سلكها، وهي تعبر عن جهل الناس بمقام الشكر، والنظر إلى النعم الربانية التي تحيط بالمرء فيخطئها جهلاً وعماية.

البلاء يأتي فجأة، وكبيراً، والنعم تأتي تترى ومتتابعة، حتى يزول الألم ويحصل العطاء، فالمرء لغفلته يبصر الألم والبلاء للمعنى الذي تقدم من صدمة المرء به، ومن إتيانه كبيراً، حتى إذا انجلى تدريجياً لم ينتبه العبد له، ولم يرى يد الله المنعمة كما رأى يد الله في البلاء، ولهذا يضعف نظره ،وسمى الشيخ هذا الحال: ضعف الاستقبال.

ثم إنّ النعم كثيراً ما تصنع الانشغال بها ترفاً وتنعماً، والبلاء يشغل قلب العبد من أجل صرفه، فالنعم بلاء التنعم، والبلاء شغل للنفس عن محبوباتها، فهي أقهر للعبد، ولذلك تصرف عينه عن النظر للنعم، وتبقى ساهرة لصرف البلاء، ومن هنا يضعف بصره في فهم النعم حين مجيئها.

---

[1] صحيح مسلم (١٧٦٣).

والمرء ربما يقف نظره على نعمة غائبة، غير مبصر لنعم حاضرة، فيغفل عن الشكر، ولا يبقى في قلبه إلا أمنية حضور الغائب، وهذا من ضعف استقباله، ولو نظر إلى عدد ما أعطي مقابل ما حرم لقام مقام الشاكرين.

يكون للمرء الولد الكثير ثم يفقد ابناً فلا يكون في نظره إلا الغائب، وهكذا بقية النعم والعطايا الإلهية، وهكذا حال الناس في أكثرهم معها، نظرهم لما غاب، وعميهم لما حضر، وهذا ضعف من العبد في رؤية العطايا الإلهية، ويوجب بعد ذلك ضعف الشكر.

جزى الله الشيخ خير الجزاء، فهي كلمات نافعة، أسأل الله أن يرفعه بها، وأن يجعلها في ميزان عمله الصالح يوم القيامة.

ومثل هذه الكلمة كملام الحكمة تحتاجه كثيراً، وفي غمرة الحياة يكون فيها النجاء من مرض خطير، وهو سوء الظن برب العالمين ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ**﴾ وهذا المرض أس فساد الإنسان. والحمد لله رب العالمين.

كلمة في حق كلمة (١٣)

لابن نباتة المصري رحمه الله

[٤ مارس ٢٠١٨ – ١٦ جمادى الأخرى ١٤٣٩]

خبز الشعير

هل تعلم أن هذه الكلمة عنوان كتاب لابن نباتة المصري الشاعر اللغوي المعروف، صاحب كتاب: (شرح رسالة ابن زيدون).

وسبب هذه التسمية أن ابن نباتة كان يخترع المعنى الغريب في شعره الذي لم يسبق إليه، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدي، فيأخذه منه وزناً وقافية، وينسبه لنفسه، على ما قال ابن إياس[١].

وقال هو في المقدمة: فلما طال عليّ الأمر في ذلك جمعت كتاباً فيما قلت وسرقه مني، ونسبه إلى نفسه، وسميت هذا الكتاب: **خبز الشعير**، لأنه مأكول مذموم.

من تأمل حياة البعض وجدهم على معنى ما قاله ابن نباتة، وأن حال القليلين هو حال خبز الشعير، يؤكل ويذم، يستفاد منه ويسرق منه ثم يذمونه ويهجرونه، يأخذون منه كالسراق، فيسطون على ما يكتب ويقول، ويستفيدون، ثم يجحدون ويسبون ويقرعون.

والأمر مع هؤلاء كما قال أحمد بن إدريس المعروف بالقرافي صاحب الفروق المشهور:

وَإذا جَلَسْتَ إِلَى الرِّجَالِ وأشْرقت ... فِي جو باطنك الْعُلُومُ الشرد

فاحذر مناظرة الحسود فَرُبَّمَا ... تغتاظ أَنْت ويستفيد ويجحد

الرافعي رحمه الله له معاني عظيمة، يبتكرها، لا تجدها عند غيره، ومن ذلك وصفه لبعض الناس أنهم كحبة القمح تحرق في الشمس، ثم تطحن ثم تدخل التنور لتخبز، من أجل أن يأكلها الناس[٢].

---

[١] انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن اياس الحنفي (١/٨).

[٢] انظر: وحي القلم للرافعي (١/٥٦).

وهكذا تمضي الحياة بين قزم يرتقي ظهور العمالقة، فيبدو أنه أكبر منهم، وبين أناس يعملون ويجتهدون ولا ينسب لهم فضل.

كن كخبز الشعير، ولن تكونه وترتاح حتى تخلص لله، وترجو الدار الآخرة، وتهون عندك الدنيا، وإلا عشت متألما حسيراً.

كلمة في حق كلمة (١٤)

للإمام الشافعي رحمه الله

[١٢ مارس ٢٠١٨ – ٢٤ جمادى الأخرى ١٤٣٩]

قال الشافعي رحمه الله تعالى: "لو كلفت شراء بصلة ما فهمت مسألة".

(تذكرة السامع والمتكلم، لبدر الدين ابن جماعة رحمه الله).

العلم عزيز غالي، لا يقبل الشركة، فهو لا يبذل نفسه بسهولة، بل لا بد من أن يبذل الآخر له نفسه ليعطيه، والفكر لا يشغل بأمرين، خاصة فيما هو مهم وثمين، ولذلك يؤثر عن أهل العلم قولهم: العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، ولذلك لا بد من التفرغ مع العلم، وعدم شغل البال بغيره، وحين يأتي البعض للعلم لمة بعد لمة، ويبذل له من فضول الوقت لا أصله لا يأخذ منه إلا الفتات الذي لا يقدر أن يدخل به في مسمى العلماء ، ولا يمكن أن يكون من أهله، ومن تأمل سيرة العلماء رأى عجباً في هذا الباب، فهم في أغلبهم سعوا لنيل العلم صغاراً، لا يشغل أذهانهم سواه، يطوفون على الشيوخ ، ويزورون البلدان، فيكتبون، ويجمعون، حتى يعرف الواحد منهم بأنه نهمة، طلعة، أورادهم في هذا مشغولة من الصباح للمساء، لا يشغلهم طلب رزق، ولا معاناة أهل، ولا لعب صبيان، حتى إذا جمع الرجل العلم ، ورأى العلماء صار له شأن من العطاء والبذل، وقد يكون في الطلب الآلاف، ولكن لا يبقى منهم في سبيل العلم إلا المئات أو العشرات، يختصون بهذا العلم والفقه، وبه يشهرون ويعرفون.

هذه الكلمة المنسوبة لتاج الفقهاء كما وصفه الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى لا تعني عدم قيام الرجل بحق أهله، ولا بحقوق الناس، ولكن تعني أن المرء ليدخل في زمرة العلماء لا ينبغي له الاشتغال بغيره، ولا أن يكون له هم من هموم الحياة إلا هم العلم وطلبه، ليعطيه العلم نفسه، ويكشف له عن أسراره.

العالم الذي يسري كلامه علماً بين الناس من زهد في الدنيا، ومن أعرض عن زخرفها، وما ذل العلماء إلا بمنافستهم أهل الدنيا في دنياهم، فجلسوا على أبواب السلاطين، وقبلوا منهم العطايا التي هي الرشوة والتزلف لهم ليفسدوا عليهم دينهم.

تطلع الشيخ أو طالب العلم لأهل الدين لينافسهم، وليسبقهم في الرغد والنعم والرياش يعني أنه أضاع أهم ركن من أكان القيام بحق العلم، والسلاطين دوماً يعلمون أن العلماء هم المنافسون لهم على قلوب الناس، فيبذلون لهم المال ليكونوا سواء في هذا الباب، كلاهم ينافس على الدنيا، ولا بد من السبق حينها للحكام.

هذا الشيخ الذي شغل ذهنه في بناء أكبر بيت، وتجهيزه كبيوت الأثرياء، يحرص أن يكون فيه ما يكون في بيوت المترفين، متى يفهم سر ارتباط العلم بالآخرة!

الرضا بالقليل، والقناعة بما يحصل به السير وعدم الانقطاع من القوت والملبس والبيت يسهل للمرء تحصيل العلم وانشغال النفس به.

والمهموم كذلك بالفقر والفاقة، وعدم الكفاية كذلك عنده من حواجز التفرغ والانشغال بما يلزم من الطلب والنظر والبحث.

والمرء له زمنان؛ زمن الطلب والبحث والتقميش، فهذا يوجب التفرغ الكلي، وعدم الانشغال بشيء إلا بالعلم، فإن جلس للتعليم ربما قضى بعض الحوائج، واليوم تكثر الحاجات، والالتزامات الاجتماعية، فهي تضيع الكثير من الوقت، والمرء عليه أن يوازن بين هذه الأمور وبين طلبه للعلم وبذله كذلك.

ولكل زمن أركان لطلب العلم، فكانت الرحلة في زمن مضى هي أعظم العناصر لتحصيل العلم، إذ يحصل بها لقي العلماء، ومجالستهم، والمباحثة، وما زالت هذه كذلك اليوم، ولكن قلت أهميتها ، وصار أعظم ركن لطلب العلم هو اقتناء الكتب، والحصول عليها، والجلوس معها، ومن انشغل عن هذا الركن فاته الخير الكثير، وهناك من يقلل قيمة الكتب، ويتحدث عنها حديث بعض أهل العلم السابقين، وهذا خطأ، ورحم الله ابن حزم وهو يقول: "دعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت ، ثم قصد إلى عين العلم، ليخرج به عن جملة أشباه البهائم فقط، لا

يجعله مكتسبه ولا ليمدح به، وذكاء وفهم وبحث وذكر وصبر على كل ذلك، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب، فلن يخلوا كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به. فإذا لا سبيل إلى ذلك فالكتب نعم الخازنة له إذا طلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد. وهذا خطأ ممن ذم الإكثار منها، ولو أخذ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها وادعوا ما شاءوا. فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل"[١].

مع العلم تحتاج إلى صبر وذكرى الدار الآخرة، والمعين لك من الإخوان والأهل، ومن يعذرك في تقصيرك في واجب حق عليك لم تستطع أداءه.

مع العلم تهجر كل لذة إلا لذته، وتنسى نفسك في خضم طلبه والتفكر فيه.

---

[١] رسائل ابن حزم (٤/٧٧).

كلمة في حق كلمة (١٥)

للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

[١٥ مارس ٢٠١٨ – ٢٧ جمادى الأخرى ١٤٣٩]

قال العالم الرباني أحمد ابن حنبل: "والله يا بني ما بت ليلة منذ ثلاثين سنة إلا وأدعو للشافعي. كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو منهما عوض...".

هذه كلمة تبكي المرء، وتعرفه مقدار الرجال الذين سارت بعلومهم القلوب والكتب، ونشر الله فضائلهم على لسان كل موحد، عابد، مجاهد، واقتفى أثرهم كل من سار على درب العبودية والإخبات، مريداً الدار الآخرة، راجياً رحمة الله، خائفاً من ذنبه.

هذه يا أخي كلمات الحب في الله، والصدق في القول، والعدل في الميزان.

هذه زاد لسالك طريق الجنان، لتعرف أي نوع هم أهل هذا الطريق.

هذه كلمات يتغنى بها، ويطرب لها، لأنها كلمات القلوب الصادقة.

هذه كلمات الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

يقولون: أشد ما ترى من الحسد بين الأقران، وأفسد ما يكون بين العلماء، وهو والله كذلك، لكنه والله كالخل في العسل، يفسد دين المرء، ويذهب بهاءه، ورونقه، ويسقط الرجال، ويذهب عقولهم، حتى ليصبح الرجل كالذئب لا يتقن إلا إراقة الدماء، وقذف الأعراض، فيجري به سعار الحسد كأنه لا يراقب الله، ولا يعرف الدار الآخرة، ولم يسمع بالعدل، ولا هو من أهل المرحمة.

هذا أحمد بن حنبل يعرف قدر هذا الرجل العظيم، والذي سمي بناصر السنة، وعلم العالم كيف يتكلمون في الفقه، فلا يحسده، ولا ينقب عن خطأ هنا أو هناك مما لا يخلو منه أحد من الخلق، ولا ينافسه في مكرمة، بل هو يعلم أن اعترافه بمكارم الخلق هو مكرمة له، وهي منقبة يحبها الله لعباده، وبها يرفع الله شأنهم، فيطلق هذه الكلمات، والتي والله لا أتصور عبداً يتغنى بها إلا بكى:

(**كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس..**)

يا الله، يا أرحم الراحمين، ما هذا القلب العظيم الذي هدي لمثل هذه الكلمات العجيبة، وهي التي والله لو سهر عليها شاعر فحل متقفياً مطلبها لعجز عنها، وما أصابها.

لا يعرف قدر أهل المروءات إلا أهلها، ولا يعرف قدر العلماء إلا العلماء، ولا يبقى في الأرض من الخير إلا من زرع في قلبه زرع التقوى وحب الناس وإنصافهم.

(**ما بت ليلة منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي**).

والله لو قالها عن أمه أو أبيه لكانت خصلة عظيمة تمدح، وبها يرتفع عند الحق والخلق، فكيف يقولها في حق قرين له، ورجل حل في دياره، وهو المقدم فيهم، فيلازم بغلته، يسمع منه ويحاوره، ويبلغه أن يحيى بن معين عاب عليه هذا ، فيقول: لو لزم يحيى الشق الثاني لكان خيراً له.

لا ندري أهذه كلمات مدح في الشافعي أم هي كلمات ثناء القلوب على العالم الرباني أحمد بن حنبل الشيباني!!

أين أنتم ممن تريدون دخول الملكوت باسم العلم وأهله، ثم أنتم لا تعرفون إلا جمع مثالب الخلق!

أين أنتم أيها السالكون درب الفقه والحديث ثم أنتم لا ترون لأحد منقبة من فضل أو خير، بل كل منقبة عندكم مذمة، وكل خصلة خير مدفوعة بألف من التهم والظنون والذنوب!

قتلكم الحسد.

قتلتكم الظنون.

أفسدكم تقفر السيئات والذنوب.

شغلتكم ذنوب الناس وأوهامكم عن رؤية الفضل في غيركم.

فماذا كان؟

سقط الجميع من عين الله، ولم يتعلم منكم تلاميذكم إلا البحث عن سيئاتكم، فذقتم من نفس الكأس الذي أسقيتموه لغيركم، وكما تدين تدان.

تأمل ساحة العلم والدعوة والجهاد، فهل ترى غير الحسد والتهارش والقطيعة!

تأمل ساحة المتدينين، فهل ترى غير الخصومات، وإشغال التلاميذ والصغار بقيل وقال، وتجميع الأخطاء والزلات!

أي دين هذا عند من لا يرى إلا الشر في الأقران، ويأنف الواحد أن يذكر منقبة أو خصلة خير لمعاصر!

والله لن تدخل باب الفضل، حتى ترى الفضل في نفس غير نفسك، ولن تعرف العلم حتى ترى العلم في حال أحد من الناس غيرك، وأما ما تراه من نفسك، فإنما هو الغرور ، والسقوط من عين الله تعالى.

عندما تسمع كلمة خير من عالم، نفع الله بها الخلق، فلا تنس الدعاء له، لتكون فيك خصلة من ابن حنبل، بل من سيده صلى الله عليه وسلم.

عندما ترى رجلاً جلس ليعلم الناس العلم فافرح له واشكر له فعله لتكون ربانياً.

عندما تسمع الناس يتحدثون عن مناقب عالم من أقرانك فاحمد الله أن أحب الناس العلماء.

راقب قلبك، حتى لا يكون مأوى للهوام والذئاب والأفاعي والحشرات، فإنها ستقتلك، ولا تظن أبداً أن ما تخفيه من كل هذه الشرور لا يعرفها الناس عنك.

رحم الله الشافعي، والذي لم يناظر أحداً إلا وتمنى أن يظهر الله الحق على لسان خصمه.

رحم الله الشافعي والذي تمنى أن يتعلم الخلق هذا العلم دون أن ينسب إليه.

ورحم الله أحمد بن حنبل وهو يعلمنا كيف يكون أهل العلم في صِلاتهم، وحبهم، وفي إنصافهم.

يا رب بعض ما عندهم لننجو.

كلمة في حق كلمة (١٦)

لمروان بن الحكم رحمه الله

[١٨ مارس ٢٠١٨ – ١ رجب ١٤٣٩]

وإنْ أنــت باذيــت الســفيه إذا بــذا فأنــت ســفيه مثلــه غــير ذي حلــم

فــلا تقرضــن عــرض الســفيه وداره بحلــم فــإن أعيــا عليــك فبالصــرم

ومــن عاتــب الجهــال لم يشــف غيظــه ولكنــه يــزداد ســقماً إلى ســقم

الحياة متنوعة ومختلفة الوجود، وفيها العجائب في كل باب، والعبد ممتحن في كل منعطف، وكل لحظة، وأعظم ما يلاقي منها هو الصبر، وما زال الناس يحضون عليه، ويزينونه من كل وجه، فالحكيم بحكمته، والشاعر بنظمه، وكلهم يعظ بهذا الخلق العظيم.

تقديرك لصاحب الكلمة: أمن سفاهة قالها، أم من كبر وغرور، أم ضياع عقل وجنون، أم من حسد عضه حتى أعماه، فهذا النظر إلى مصدر الكلمة يريحك في فهم معناها، أم النصيحة الطيبة أم من غرز آخر، يجمع الغرز الآخر كلمة واحدة: الهوى.

للسفيه خصلة في كلامه، ومعلماً تؤوب إليه، فلا يخطئها صاحب النظر.

السفيه يعني أنه يشد ثوبك لتنتبه إليه، ويعني أنه لا يحسن إلا القذف بالشر، وتصور الخطأ، حتى لو سبحت وهللت.

السفيه يعني أنه لو قلت له أخطأت صرخ وماج وهاج وقطع لك كل ثوب ترتديه، لأنه لا يحسن إلا التمزيق والصراخ.

السفيه يعني أنه كقشة الوادي تثيرها كل نسمة، وتحملها كل قطرة ماء، فهي لا تعدو أن تكون قشة خفيفة.

السفيه من إذا أثير استثار، ومن إذا روجع غضب، وإذا خوطب بالعلم لم يجد سوى الزعيق والتعالم الغث، فلا تملك إلا أن تسكت.

السفيه هو من وقف على بابك كل يوم ليقذفك بالشر والسفه وسوء الخلق.

مع هذه الكلمات الحكيمة من الشعر تعلم:

إياك والسير معه، بل إياك والوقوف ولو لحظة لتسمع ما يقول، فإنك ولا شك ستتعب أنت، وهو بهذا يصيب بعض قصده منك.

إياك والبذاءة في القول مجاراة له، بل إن فعلت ذلك كنت مثله في السفاهة والبذاءة.

إياك ورد هجوه، فأنت الملوم من كل عاقل، بل جابه سفاهته بالحلم، فإن ظننت أنك ستضعف، فعليك بالهروب منه هروبك من كلب عقور.

وإن شئت العقل كما يوصي به العقلاء فتأمل:

ومن عاتب الجهال لم يشف غيظه ... ولكنه يزداد سقماً إلى سقم

العتاب يحتاج إلى حب وصدق، ويحتاج إلى عاقل لو خوطب لرعاه عقله عن الغي والسفاهة.

العتاب يعني أنك ترجو منه خيراً لما يأتي، والسفيه ليس كذلك.

العتاب يعني أنه صاحب مروءة ونفس كبيرة، إذا خوطبت بالخير استجابت، وهذا ما برئ منه السفيه.

العتاب يعني أنك تريد مد الحياة معه، ومثله يكون الهروب هو الحل.

السفيه لا حياء عنده، فله جلد قد من الصخر، والعتاب مبني على الحياء.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

كلمة في حق كلمة (١٧)

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

[٢٨ مارس ٢٠١٨ – ١١ رجب ١٤٣٩]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "مسائل النزاع التي تنازع فيها الأئمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم؛ فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً، ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً، ولا يتعدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول مثل تكفيره أو تفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، وهذا حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوهم في بعض مسائل الدين".

(مجموع الفتاوى، ١٧/٣١١).

هاهنا مرتبتان في الاجتهاد والنظر، أولاهما: تحقق هداية الفهم التام عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيحصل الاتفاق القلبي للاتفاق العلمي، وهذا عادة يقع بين أهل السنة في المسائل الكبار ، والتي فيها الإجماع، ويكون دليلها بيناً في دلالته على المراد، مع اتفاقهم عليه، وعدم اختلافهم في ثبوته.

وقد يقع في هذه المرتبة الخلاف، وقد جوز الشارع وقوعه قدراً، بلا إثم، بل له أجر الاجتهاد وطلب الحق، وسبب وقوع الخلف في إصابة المراد الإلهي كثير، فإن النصوص وإن استوعبت النوازل وأحوال الوجود والخلق جميعاً، إلا أن دلالة هذه النصوص على هذه القضايا تتفاوت ظهوراً وخفاءً، وقد يدرك المرء النص وقد يفوته، وهذا معلوم ومنتشر.

هذه المرتبة هي مرتبة العلم مجرداً، وكيف هو في نفس الباحثين عنه، والطالبين له.

لكن يبقى علاقة الناس بهذا الاختلاف، وما شأنهم معه، تنازعاً أو إعذاراً.

تأمل كلمة الشيخ رحمه الله وقوله:)**فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً، ولم يبغ بعضهم على بعض....وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم**).

فهاهنا مرتبة النفوس مع هذا الاختلاف العلمي، ومرتبة التقوى في التعامل معه، ومرتبة الإخلاص وعدم العلو وعدم البغي.

في نفس كل مجتهد أنه الحق، أو هو الأقرب للحق، ولكنه كذلك في نفسه نوع احتمال أن هذا الحق منازع، وذلك لأسباب لا يعرفها إلا من مارس الفقه والبحث والاجتهاد، وأما المقلد الذي يرفع شعار الاجتهاد كذباً فلا خبرة له باضطراب النفوس مع هذا النوع من المسائل، ولذلك هو مطمئن اطمئنان الطفل بقول أبيه، والذي يجزم أنه الحق كله، وأن غيره باطل بطلان الشرك والكفر، وهو سبب البغي والظلم ، فالجهل هو من يصنع هذا اليقين الزائف المبني على التقليد حتى لو زعم النظر والاجتهاد.

العلم هو من يصنع النفوس، والعقلاء هم من يعرفون مراتب الدلالات، وهم من يعيشون على قاعدة: لا تكتب عني كل ما أقول، فقد أقول اليوم قولاً أرجع عنه غداً، فهو لا يعذر المخالف إلا بعد أن أعذر نفسه، وعلم حال غيره من خلال حاله هو.

الصغار والجهلة هم من يجزم بقول يحتمل ولو بشيء يسير صحة غيره، ولكنهم لا يعلمون، فيقع البغي والظلم والتجاوز، ويصبح المرء على معنى الخارجية في هذا الباب مع المخالف، فيكفره أو يفسقه أو يحبسه.

فهذا واقع قدري، والشرع يقره ، ويتعامل معه تعامل الرحمة والتشجيع، فيعطيه الأجر حتى وإن أخطأ، ولكن هذا الشرع العظيم لا يعطيه حق سباب وظلم المخالف حتى يخرج عن حد الحكمة العملية، والتي توجب معرفة حاله، وذلك بأن يغير إذا ثبت له خطأ قول قاله، وأن يعذر غيره، بل ربما ظن أن قول غيره هو الصواب، فيحبه ويدعو له.

مشكلة أهل الظلم والبغي والخارجية، قلت أم كثرت، مشكلة علمية نفسية، إذا خولفوا لم يفهموا حقائق هذا الاختلاف، ولم يفهموا العلم ووسائله، ذلك لأنهم زعموا مزاعم هي الكذب ، وهم بهذا

يحبون العلو في الأرض، وتتحول المسألة عندهم من كره من خالف الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كره وبغض من خالفهم هم.

وتصور الخلاف بين أعلم الناس وهم الصحابة يوجب على العالم أن يعلم أن الخلاف بعدهم أشد، فوجب توسيع دائرة الإعذار، ولا يغرنك قولهم أن العلم اليوم مناشر فوجب ترك الخلاف، فقائل هذا القول جاهل جهلاً مركباً، وليس له من فهم الشريعة والقدر شيء مما يمدح به ويدخله في زمرة العلماء المحققين.

وتبكيني كلة الشيخ هنا: (**فإن رحمهم الله**...)

إنها هداية القلوب والنفوس، وعطاء رباني يضعه الله في قلوب العلماء والناس رحمة بهم، لما علم ربنا من قلوبهم حب الخير والصلاح، وإلا كان الخلاف المذموم، لا يخالف الرجل أخاه في مسألة حتى سب بعضهم بعضاً ، وبدأت بينهم صراعات الديكة، وكشف العورات، والتحدث عن السيئات، وخاصة إذا كان بينهم تاريخ صحبة، فحينها ترى العجب العجاب من حرمان الله لهم الرحمة.

وأنت إذا تأملت زماننا وجدت أن الناس يتحاسدون ويتقاتلون ويتسابون وهم في قول واحد، بل في بلاء واحد، يلبس عليهم الشيطان بوجود خلاف في العبارات والكلمات، فكيف إذا وقع الخلاف، وقد وقع.

وبعد كل هذا، يأتي جاهل وبسبب هوى النفوس لا خلاف العلم يرفع شعار الهجر لأخيه، ويزعم أنه هجره لله، ووالله قد كذب، فإنما هجره لرفعة نفسه، وأنه خالفه هو أو خالف من قلده من شيوخه وأئمته

تأملها جيداً، ترى نفساً كبيرة تتحدث حديث السماء، وليس فقط حديث التراب: (**فإن رحمهم الله**).

اللهم رحمتك.

كلمة في حق كلمة (١٨)

للإمام النووي رحمه الله

[٢ أبريل ٢٠١٨ – ١٦ رجب ١٤٣٩]

قال النووي رحمه الله تعالى: "قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أثقل للقلب من الخصومة".

(كتاب الأذكار).

غشيان الغم على نفس المرء تذهب عنه الكثير من الأعمال والفروض ومحاسن الاختيارات في القول والفعل، لأن الغم مذهب لصفاء النفس، مشغل لها ، وهو أشبه بثقل مهلك على البدن، يتعبه، ويشغله عن كل أمر، والغم ثقل عجيب، إذا غشي نفساً إنسانية شغلها، فلا يطيب لها أمر، ولا تفكر، ولا حسن اختيار.

وإن أعظم مسببات الغم القاهر، هو الخصومة واللدد، لأنها سبيل الغضب، والاختلاف، وبؤس النفس، فهو مشغول مهموم متفكر بغير ما ينفعه، وخاصة إذا كانت الخصومة مع كاذب، أو جاهل، أو خصم لدد، لا ينفك أنه مشغول بك، وبملاحظة ما يصدر منك، فلا يقيمه إلا على معنى الشر والغلط، لأن شأنه أن لا يلتقط إلا الوسخ، فإن رأى خيراً أجراه على معنى الغلط ليتلاءم مع نفسه المشغوفة بالشر.

الخصومة النفسية قد يلبسها البعض لباس الدين، والدفاع عنه، وعن الحق، وهذا إحدى منافذ الشيطان على الصغار، ممن تركوا تربية أنفسهم وتقويمها، وممن لم يألفوا اتهام أنفسهم دائما كما هو شأن العلماء والصلحاء والعباد، فهم في حالة زهو، وافتخار، ومدح لذواتهم، والفارق بين بين الخصومة في الله والخصومة بالباطل أن يعدل المرء مع الخصم، فيذكر ما فيه من خير، ويعرف له فضله فيما هو فيه، وإن سئل عن حسناته عدها كما ينشط لعد خلافه معه، وهذا منا يكاد يذهب في أيامنا هذه بين

المتخاصمين، إذ لا تجد إلا السباب، وتقفر العورات والعثرات، وكشف السر الذي جرى بينهما أيام الصفاء، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم تخاصموا في الله!

ثم إن من علائم صدق المرء مع الله في الخلاف هو الوقوف عند بيانها والتنبيه على الخلاف ثم يمضي كل إلى حاجته، وما ينفعه، فيذكر الخلاف، ولا يقف المرء عنده كآن الدنيا لا يوجد فيها إلا هذه المسألة أو هذه القضية، ومن تفكر في طرق العلماء في الردود والمناظرات رأى سراً عجيباً، وهو أن يقول كل واحد كلمته، ثم ينتهون، ويمضي كل إلى ما يوجبه الوقت والحاجة من العلم وغيره، واليوم تجد الواحد مشغولاً بخصمه، شاغل الناس بما بينهما، يرد هذا ، ويقابله الآخر، ويأتي المحرشون ليزيدوا أوار الخلاف، لتزداد متعتهم بمشاهدة صراع الديكة، وفساد الدين بينهما، وهما في غفلة عن الدين الذي يهدم في القلوب، والوقت الذي يمضي في غير ذكر لله وقراءة قرآن وحصول نفع ونصح.

ثم أنت تشاهد الرجل وقد ملأ عينك بعلمه أو حسن ذكره للعلم، أو حسن دينه ولفظه، فإذا دخل في الخصومة ولج فيها، وتطاول الأمر بينه وبين خصمه سقط من عين الناس، وصار له الذكر السيء، وهذا من ذهاب المروءة، وإفساداً لما أمر الله من طلب الستر والعافية.

ولذلك ينصح المرء أن لا يرد على سفيه، ولا جاهل، مهما تطاول في السب، ومهما لج الجاهل في الخصومة، بل الواجب تركه، فإنه إن رددت عليه، وخاصمته هزمت، وأصاب منك ما تكره، ولم ينتفع بما تقوله لك، وستجد من الخصوم لك من ينصره لا للحق، ولا لعدل العلم بل لكرهه لك، وحينها يظن الجهلة وهم كثيرون أنه مصيب وأنت المخطئ، وخاصة في زمن انتشار الجهل والخصومة والحسد.

ليس كل مخالف يستحق الرد، ولا كل كلمة توجب تصليحاً، ولا كل من انتقدك تجابه كلمته بكلمة، فهذا إن وقع من أحد كان ظالماً لنفسه، بل المطلوب، وهو الأغلب فيما يقع من الردود والخلافات والخصومات هو الإعراض، فلا أحد ينقل لك، ولا أحد يشعل نار غضبك، بل أنت بهذا تميت الشر، وإن لم يمت فهو خامل لا نار فيه.

يكثر البعض من قوله لك: لا تسكت، وأظهر الحق، وبين الصواب، وهذا كلام يقال إذا كثر العقل، ووقع الإنصاف، وكان للناس دين يردعهم ، ويعلم يبصرهم، أما وأنت ترى التحزب، والتفرق،

والعصبية، والحسد ، فاعلم أن الناس سيلحقونك لمعنى باطل، وسيلحقون غيرك لمعنى باطل آخر، وهذا مذهب لدينك، مشغل لقلبك، مفسد عليك خلوتك، وشؤون حياتك.

هذا قلبك، فاحفظه من أن يتحكم به خصم حسود، أو متكلم جاهل، أو فاسد دين وخلق، وتحكمه في ذلك يكون بإشغالك به، تاركاً ما ينفعك من استغلال الوقت في أمر دينك ودنياك.

إذا اضطررت أن تقول كلمة في بيان سؤال أو أمر فإنما هي كلمة والسلام، ثم الخروج منها، والذهاب عنها، وعدم الوقوف عليها؛ فإن جاءك محرش فأعرض عنه، وذكره بالله، ثم امض لما يحب الله منك.

هناك من الخلق ما لا يقوم إلا بالخصومات، وتتبع أخطاء الناس، وحمل كلامهم على أسوء المعاني، وأنت إذا رددت عليه أصاب منك ما يحب، وعلم أن مراده منك قد وقع، فاقطع عليه، ولا تفرحه بهذا الأمر.

الخصومات: باب الشر والظلم، وباب الفساد والكذب، وباب البهتان والغضب، وسلامة الصدر لا تحصل إلا بهجرها ما استطعت.

ستغضب من كلام كثير يقال، ولكن سيدوم غضبك إن واجهتهم ، وأكثرت الرد عليهم، وحينها سيسود قلبك، ويذهب دينك، وستضيع مروءتك، وحينها يجلس الشيطان؛ إنسي وجني، وهو يفرك يده جذلا أن تحقق مراده فيك.

تعلم أن لا ترد إلا على عالم ، وعلى تقي، وعلى منصف، وعلى من علمته إذا خوطب بالحق قبل، وإذا ذكر بالله خاف وارتجع.

إياك أن تقول كلمة لحسود حاقد، فوالله لو قلت له آية من كتاب الله لرد عليك، وأفسد عليك مرادك.

إن غضبت من كلمة صب جام غضبك على كتاب بين يديك، تتعلم منه، وتعاني منه ليسلس لك قياده، ولترتقي معاني قلبك وعقلك.

حينها سينتفع بك محب الخير، ويموت قهراً من أحب لك الشر.

تعلم: إن من أحسن طرق قتل شر نفوس الناس أن تطيع الله فيهم، وذلك بانشغالك بإصلاح نفسك.

والله الموفق.

كلمة في حق كلمة (١٩)

لبعض التابعين، رحم الله الجميع

[١٩ أبريل ٢٠١٨ – ٣ شعبان ١٤٣٩]

"من طلب العلم لله فالقليل منه يكفيه".

هذه كلمة توارد الناس على ذكرها، فهي منسوبة لبعض التابعين، وقالها ابن عبد البر في التمهيد، وذكرها الشاطبي في الموافقات، ذلك لجلال معناها، وهناك من زاد عليها قائلاً: **من طلب العلم لله يكفيه إذا عمل به، ومن طلبه للناس فحوائج الناس كثيرة.**

والقليل والكثير نسبي بين الناس، ومما لا شك فيه أن المرء محتاج لكتاب ربنا، حفظاً، وتفسيراً بما يصلح له دينه واعتقاده في ربه ورسوله وأحكام دينه، وهو محتاج للحديث الذي فيه فقه الحياة التي يحياها، وهناك من العلوم التي هي آلة لتحقيق فهم الكتاب والسنة، وهذه لو بدأ المرء بطلبها لبلغها وهو في مقتبل عمره، ثم هي معه حتى يلقى الله، يذاكر بها مذاكرة الحفظ والعمل.

والذي أفسد على الناس طلبهم العلم في الكثير من البلدان والأحوال هو ما يقضيه المرء في ما يسمى الدراسة الأكاديمية، والتي يعلم كل واحد منها أنها مفسدة لطلب علم الدين والدنيا، لما فيها من تشتيت الذهن، وضعف المادة، وكثرتها التي لا تنفع المرء طيلة حياته.

وعلم الشرع اليوم بين يدي الناس مبذول في الكتب، ومبذول في أحوال متعددة من خلال الأخذ عن الشيوخ، وخاصة ما تعلق في البدايات والقواعد، ولكن نشاط الطباعة والنشر للكتاب، فيما هو من كلام سابق أو معاصر يجعل البعض في حيرة وتخوف أن لا يدرك مطلوبه من العلم، وخاصة من له نفس تتشوف، ولا تقنع، وتكثر البحث والطلب، لما تحب من هذا المعنى، فهي طلبة حريص.

والناس اليوم على معاني ومراتب، فمنهم من يحرص على جمع الكتب، وملاحقة إصداراتها ونشراتها، وهذه نفس تمشي على سنن بعض الأقدمين، ولكن علمها بما في الكتب قليل، لأسباب كثيرة، لا نذكر منها هنا ما هو شر، وهو حب التزيي بلباس العلماء لمن ليس له أهل.

وإنما هو محب للكتاب وللعلم، ولكن مدارك عقله في تفريع الكليات، وتنزيل الحوادث عليها ضعيف، فهو لا يقدر إلا على نقل ما يقرأ، سواء في المعنى الخاص أو العام، فهو ناقل وفقط.

وهناك من يكفيه أن يعلم الكليات ليقع منه التنزيل والتفريع، فله عقل ذكي ،قوي النظر، يغوص للمعاني البعيدة من الكلمة القريبة.

وهذا لو قرأ القليل، وعادة لا يكفيه القليل، لكنه ينتج منه الكثير، فهو من أسعد الناس بالعلم.

وهناك من هو بليد الذهن، إن قرأ فلا يفهم، وإن فهم فبصعوبة، وهذا قلما يأتي منه النفع لغيره، لكنه مأجور كأجر من يقرأ القرآن ويتتعتع فيه.

والقصد من هذه الكلمة بما يلحق بها من لفظ: وإن طلبه للناس فحاجات الناس كثيرة، أن العلم النافع هو الذي يصلح صاحبه، ويقربه إلى الله تعالى، ويسعده في جني الحسنات، ورفعة الدرجات، وإلا كان العلم بدون ذلك ثوب مستعار، يلبسه المرء حيناً، ثم يخرج منه.

مقصد العلم أن تقوم معاني الإيمان في قلبك: هيبة له، وحباً له، وخشية منه، وطلب رضاه وفرحه.

مراقبة الله في السر والعلن، في الخلوة والجلوة، واستحضاراً لذكره، تسبيحاً وتهليلاً، وتحميداً، وتكبيراً.

العلم الذي لا يدفعك لكثرة السجود لن يكون هو العلم الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم: (**اقرأ وارتق**)[(١)]، فهذا حديث شارح لقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**﴾، وخاتمة هذا العلم: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب**﴾.

العلم تعترضه موانع من شر النفس وعداء الخصوم، فهذه معاني لا يصلحها كما ذكرها ربنا بقوله: ﴿**كَلَّا لَا تُطِعْهُ**﴾، فرد كتل الشر من النفس والأعداء يكون بالعبادة، فيجتمع لك العلم النافع والعمل الصالح، فيحصل لك القرب من الله.

وأنت ترى اليوم الناس مع العلم، فهناك من هو من خير الناس ثقة بالله، وخوفاً منه، وكثرة ذكر، له ورد من صلاة لا يتركها، من قيام ليل، وصلاة ضحى، وورد من ذكر فيه الاستغفار والصلاة على رسول

[(١)] رواه الترمذي وأبي داود وصححه الألباني وأحمد شاكر وغيرهما.

الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الباقيات الصالحات، وهو حريص عليها، تصلح له قلبه، وتطيبه، وتطهره.

القليل من العلم الذي يجعلك مشغولاً بذنب نفسك، دون تعقب ذنوب الناس، كأنك ما خلقت إلا لرؤية الشر والذنب في الخلق.

تأمل ما يكتبه البعض، فأنت في شوق أن ترى له كلمة واحدة في الدعوة إلى خير، أو مدح ظاهرة خير، أو رجل خير، بل شأنه كملقاط الزوائد المؤذية لا يقوم إلا بهذا!

والأمر يبدأ بالنفس، ومن تجاوز هذا فقد ظلم نفسه.

تعلم العلم الذي يقوم نفسك، ويصلحها، ويجعل لها رقيباً شديد الأسر عليها، ثم بعد ذلك سر إلى غيرها، تدعو لخير علمت حقيقته من نفسك، وصلاحاً يبرق لك من معاني الكتاب والسنة، وحينها يمدح لك الناس قولك، ويعلمون صدق مقالتك.

البعض يظن جهلا لنفسه أن بغض الناس لمقاله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصلابته في الحق، ويحاول جاهلا ظالما أن يقارن نفسه بعالم عاش الحياة نافعاً للناس، ثم ختم له بفتنة مات بها شهيدا صالحاً، وهو ينسى أن كره الناس له، وإعراضهم عنه إنما هو لسوء خلقه، وقبح تعقبه، وعدم إنصافه، وسير الناصحين تسري بين الناس بفعل إلهي: إني أحب فلاناً فأحبوه، كما في الحديث القدسي، ولذلك تجد لبعض الناس حباً في القلوب، لا يضره سب مفتر عليه، وهناك من هو منشور الشر بين الناس، لا يزينه في قلوبهم تلونه ولا تصنعه.

سر الناصح في ما بينه وبين نفسه وربه عطر قوي النفاذ ، فاحذره، لأنه يكشف للناس من أنت.

كلمة في حق كلمة (٢٠)

للإمام ابن المبارك رحمه الله

[٢ مايو ٢٠١٨ – ١٦ شعبان ١٤٣٩]

"قيل لابن المبارك: إلى متى تكتب؟ فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد".

فسحة الأجل يعني ثمت فرصة لك في الحياة لترقى، ومن أفسد الظنون الوقوف على المحصول دون الرغبة في الزيادة، فتجد البعض قرأ زمناً ثم توقف، أو كتب كلمة ثم سكت، ظاناً أنه أخذ كل ما يحتاج، أو تكلم كل ما في صدره، مع أن وجوده حياً يعني فرصة للزيادة والعطاء.

من قرأ سير الناس علم أن كثيرين سكتوا، ولكنهم فرغوا للازدياد، من خلال النظر والبحث والقراءة، ثم احتاجهم الناس فرفع الله بهم مشاكل الملمات، وإشكالات العلم والفقه، وهم قد ظنوا أنهم خرجوا من المعادلة والصراع، ولكن لربهم مراد في أمرهم وحالهم.

وهناك من رأيته وهو لا يملأ عين أهله وأصحابه، ولكنه قائم على الاعتناء بنفسه وتهذيبها وتعليمها، ثم فتح الله له فرجة العطاء، فأشرقت به الدنيا جهاداً وبلاءً.

القدر له حكمته، وهو فعل الله الحكيم، يعلم ما في القلوب، ولذلك من قام على تربيتها وتعليمها، لم يخسر شيئا بل ازداد، وأعظم ما يجنيه أن ما حصله في قلبه من أعمال الإيمان والعلم يجدها في ميزان عمله الصالح يوم القيامة.

هذا النفس الرائع في سلفنا، متمثلاً بما قاله عبد الله بن المبارك يعني أنهم في بحث دائم على الكمال البشري، بتحصيل العلم، وقول العلم، واصطياد الدرر أينما كانوا، لا ينظرون إلا إلى معنى واحد ،فقد قيل لهذا العالم المجاهد الفارس الجواد، الشاعر، الزاهد التقي، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والذي قيل فيه: اجتمعت فيه خصال النبوة إلا أنه لم يوح له، قيل له: لو أن الله سبحانه أوحى إليك أنك ميت العشية، ما كنت صانعاً؟ فقال: أقوم أطلب العلم.

ولذلك حصل له الفضل اند الممات، فقد فتح ابن المبارك عينيه عند الوفاة وصحك، وقال :لمثل هذا فليعمل العاملون.

ما دام فيك نفس فحياتك لم تنته، فحضر نفسك لنوازل الدنيا، وازدد من العلم والعبادة قبل الفوات، وحضر نفسك للقاء الله تعالى.

قل دائما: لعل أجمل الكلمات لم أقلها بعد.

لعل أعظم الأعمال التي يحبها الله لم أعملها بعد.

لعل أفضل الحكم لم أسمعها بعد.

لعل خير المعاني لم أصبها بعد.

لعل خير كتبي لم أكتبها بعد.

ثم تذكر أن الفوارس العظام يظهرون في ختام السباق، وأن أعظم الحكم يقولها الناس بعد التجارب وطول المسير.

ثم اعلم أنك في كل هذا تناجي ربك.

قال ابن المبارك:

اغتـــــــنم ركعتــــــين زلفــــــى إلى الله إذا كنـــــــت فارغـــــــاً مســــــــتريحاً

وإذا مـــا هممــــت بالنطـــق بالباطـــل فاجعــــــل مكانـــــــه تســــــبيحاً

واغتـــنم الســـكوت أفضـــل مـــن خـــوض وإن كنــــــت بالكــــــلام فصـــــيحاً.

كلمة في حق كلمة (٢١)

للإمام سفيان الثوري رحمه الله

[٢٤ مايو ٢٠١٨ – ٩ رمضان ١٤٣٩]

قال سفيان الثوري: "احذر في زمانك ثلاثة: عالم سلطان، وقارئ سوق، وعابد سطوح".

في هذه الحكمة جمع سفيان الثوري مصائد إبليس للعوام، حيث يقع الضلال بسببهم، وهؤلاء يكون فيهم ما يعظم في نفوس الناس، فهذا عالم، وهذا حافظ قارئ، وهذا عابد، وهذه سمات تجل في عيون الناس، لكنها اقترن كل واحد منها بأمر يفسدها ويذهبوا في اتجاه الغلط، ولذلك وجب للحذر.

وهؤلاء قد يكثر بعضهم في زمان، ويقل بعض آخر، وقد يضاف لهذه المعاني صور أخرى، وذلك لأن الزِّي يختلف في الأزمنة والأمكنة، فعليك أن تكون ذكيا، به تبتعد عن السقوط في مهاوي الغواية.

عالم سلطان: هذه تعني في الأغلب أن هناك تزييف الحق موافقة للسلطان، وتعني كذلك غالباً غلبة الدنيا وحبها على القلب، فالمجهود من النفس أنها تحب من تزين لها صورتها، وهذا شأن السلاطين وأهل الدنيا والترف، وقد علم عنهم قلة الورع، وكراهية الوعظ بالحق ، ويصعد رؤوسهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تسامر العلم مع الدنيا، وتوافقت في الرحلة والصداقة، علم حينها أن العلم قد ذهب مع قوة الهوى والترف والشهوة.

رحم الله الثوري، كان من أشد الناس كشفاً لهذا الهوى، ومن أبعد الناس عنه، ومن أبصر الخلق في زمانه في رؤية آثار هذه الصحبة.

ويكون في معنى عالم السلطان من كره مجالسة الفقراء، ومالت نفسه لصحبة أهل الترف من أهل الدنيا، لا تعرف له صحبة إلا بهم.

وأما قارئ سوق، فقد كثر شرهم الْيَوْمَ، يظن الواحد أنه بترنمه القرآن بصوته الجميل قد ملك حق الحكمة، وملك الفتوى ، وصار من أهل العلم، وما شأنه إلا أنه رأى محبة الناس لصوته، واستماعهم لقراءته حتى صار ينطق من جهة نفسه وهواه، وما يحب هو، وما يكره هو، وهذا شر عظيم.

وكثرة القرّاء، وقلة العلماء نذير شر في الأمم، ولذلك وجب من التصق اسمه بالقرآن أن يحفظ دين الله في نفسه لئلا يضل.

وأما عابد سطوح، فتجد صورهم الْيَوْمَ بحمل السبحة، وبكثرة الأوراد، وخاصة من تجدهم من المتصوفة، فهؤلاء تدخل عليهم البدع الكثيرة، وبسمت التعبد يغرون الناس، ويفسدون دينهم.

لو اجتمعت هذه الخصال في عبد، دون هذه الإضافات، فكان المرء عالما، بلا فساد القرب من أهل الترف والسلطان، وكان قارئا لكتاب ربنا ، مختلفاً لنفسه، وكان عابداً في جوف بيته لسلم له دينه، ولرفعه الله، وحينها من اقتدى به فقد اهتدى بإمام.

يمكن لك الْيَوْمَ أن تملأ فراغات هذه الصفات بأسماء كثيرة، نسأل الله العفو والعافية، فإياك والقرب منهم.

كنت أفكر الْيَوْمَ بحال رجل، كان على مشارف الشهادة مجاهداً، وتقلبت به الأحوال حتى صار عدواً لدوداً لدين الله تعالى، إذا نظرت إليه تقززت ، وإن سمعت أخباره تعجبت ،كيف ينقلب المرء من حال إلى حال، لا يكون مرتداً فقط في نفسه، بل ساعيا للفساد والإفساد.

لا تعجب سقوط الناس وتحولهم، وانقلابها إلى ما يبغض الله، فهذه القلوب بين يدي الله، يحب منها قلوباً فيزيدها طاعة فوق طاعة، ودينا فوق دين، وهدى فوق هدى، ويبغض الله قلوباً فينصرف عنها حتى أن تذكر اسمه جل في علاه.

ولما تفكرت في حال هذا الشخص رأيت محبة السمعة، ورأيت رغبة الشهرة، ورأيت ما كنت أخاف: كراهية المساكين والفقراء، والرفعة عليهم.

اعلم يا عبد الله أنه كلما ارتفعت كان سقوطك أخوف، وكان ابتلاؤنا أشد، وإن لم تفهم هذا، فأنت لم تفهم شيئا.

اعلم أن كل كلمة علم تتعلمها لها ضريبتها، ومن اعظم ما يجب مراعاته في ذلك أن تزداد خوفاً من سوء العاقبة.

اللهم ارحمنا ، واغفر لنا، وعافنا واعف عنا.

كلمة في حق كلمة (٢٢)

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

[٢٧ يوليو ٢٠١٨ – ١٤ ذي القعدة ١٤٣٩]

الفعل الصالح وغلبته على الموصوف يدفع حكم التكفير

يقول رحمه الله: "وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة، فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم، ثم إنهم يرون من الأعيان الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمنع أن يكون كافراً، فيتعارض عندهم الدليلان".

(الكيلانية له في مجموع الفتاوى، ١٢/٢٦١).

في هذه الكلمة الجليلة من الشيخ علم خفي، ليس هو ما يبذل من علم يبحث في باب التكفير كما هو عنوان مبحث الكلام في أصله، ولو كان كذلك لما كان خفياً، ولكن انتبه إلى ملحظ مهم في الكلام، أنت تحتاجه، ويعلمك كيف تعلم الناس، وكيف تهديهم سبل السلامة من الباطل.

التكفير في هذا الباب؛ أي الحكم بالردة على مسلم، ليس حالة عقلية علمية فقط، بل حالة نفسية، فالمكفّر لا يقتحم هذا الباب حتى يسقط لديه الموصوف بفعل الكفر، فإذا خلا عن قلب الحاكم دين الموصوف، وصلته بالله، ومكرماته في بذل النفس لله، وقيام الإيمان فيه كما قال ابن تيمية كان الحكم عليه بالكفر سهلاً ميسوراً، وإلا توقف.

يقول ابن تيمية هنا: إنه ينشأ تعارض في نفس الحاكم، وهذا التعارض بين الدليل العلمي البحت، وبين الدليل العملي الذي عليه الموصوف، وهو قيامه بالطاعات وأعمال الدين التي لا تصدر إلا من محب لله، يرجو رحمته وجنته، ويخشى عذابه والنار.

يعني هذا الكلام: إن خلو تعظيم الموصوف في نفس الحاكم يمنع قيام الدليل المانع من التكفير كما يفيده مفهوم كلامه رحمه الله.

عندما يتصور الحاكمُ الموصوفَ أنه عاطل عن الدين، غير معظم لشعائر الله، لا يقيم وزناً لنصرة الدين والعمل له، فإنه إن صدر منه فعل مكفر لا يتردد في تكفيره، لأن هذا يكون لديه نتاج لحقيقة تصوره له في عدم تدينه.

لكن لو كان تصوره له أنه معظم لشعائر الله، باذل نفسه لشرع الله والعمل به، لا يخلو أمره من طاعة سر، من الذكر والصلاة والزكاة ونصرة المظلوم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم رأى منه من الأقوال والأعمال الكفرية، فإنها تمنعه من تكفير عينه؛ هذا كلام ابن تيمية رحمه الله في وصف حال السلف في مانع تكفير المعين في باب من أبواب العلم فيه.

إذا أردنا أن نعمل هذا التكييف الفقهي في زماننا، فما هي طريقته؟

الذي رأيناه من كتب السلف أنهم يعرضون صورة العلماء، وما هم فيه من الدين ونصرته، وما فيهم من عبادة وطاعة وإخبات، حتى تستقر في النفوس مكانتهم، وحينها لو عرضت قوادح الدين العلمية عندهم، قامت جبال الحب لهم ولدينهم من إنزال الكفر عليهم.

ما حصل في زماننا أن أغيلمة سمعوا المكفرات، على وجه من وجوه الجهل بها، وسمعوا مثيلاتها صادرة من أفواه أقوام، وعلى وجه من وجوه الجهل بتكييف أصحابها لها، ثم هم لا يعلمون قيمة الدين في نفوس هؤلاء الموصوفين والقائلين بهذه المقالات، بل يعلمهم من قبل بعض أنصاف المتعلمين أن كل هذا الدين لا قيمة له إن كفر، فلا صلاة تنفعه، ولا قيام الليل، ولا الجهاد، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل هذه سدى ولا أهمية لها، ولسعار التكفير المدفوعين له بأن أعظم عمل تعملونه هو تكفير الكافر، وهكذا بكلمات عامة مجملة تقوى نفس الجاهل على تكفير أئمة علم وجهاد وعبادة.

ثم صار هؤلاء يملؤون السهل والواد، وجلس الناس يضربون كفاً بكف: ماذا دهانا؟!!!

تعظيم الموصوف في نفس الحاكم، ومعرفته بحاله من الدين والتقوى وعلم الشريعة، والجهاد الذي بذل نفسه له يمنع إلحاق وصف الكفر به كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

فالطريقة لمنع التكفير الضال والفاسد، وهذا أمر من أمور، وليس كل ما ينبغي لنا سلوكه لمنع الغلو من أن يخرج لنا مرة أخرى فيحرق الأخضر واليابس، هو نشر دين هؤلاء المخطئين، وما قدموه لدين الله،

وكيف هو حرصهم على الشريعة كأي مسلم يبتغي الدار الآخرة، وتعظيم هذه الأفعال، وأنها خصال إيمانية لا يقوى عليها الزنديق المنافق، حينها تتوقف همته، ويكف سعاره من التكفير الغالي الذي مارسه الجهلة من كل وجه.

هذا باب من أبواب الدين أن يعلم الناس دين المخطئ، وعظم الشريعة عنده، وليس في إسقاطه، وتجريده عن كل منقبة إيمانية، ثم العيب عليه أنه جريء في التكفير.

هذا خطأ يجب تداركه في هذا الباب، وإن كان عندنا مراجعة لمصيبة الغلاة فيجب علينا فهم أسبابها والذهاب بقوة لعلاجها، لا بدفن الرؤوس في الرمال.

انشروا بين الناس أن هذا المقعد استشهد في سبيل الله، وأنه صوام قوام.

انشروا بين الناس أن هذا الشيخ سجن في سبيل الله، وقدم روحه مراراً من اجل كلمة الحق.

انشروا أن هذه الجماعة باعت الدنيا من أجل الشريعة والجهاد.

عظموا هذه الأعمال في نفوس الشباب ليعرفوا أن هذا الدين لم يصل إلينا إلا بجهد هؤلاء، ولسنا إلا نبتا لجهودهم، لا أن تجعلوا أبناء اليوم هم أئمة الدنيا في كل زمن.

بهذا يقف هذا الدليل من إيمان الأعيان سداً أمام الغلو في التكفير.

لا تجعلوا هذا الجبن سبة بينكم، وأنكم شجعان في التكفير، بل هؤلاء المعظمون الجبناء في التكفير هم أولى في هذا الباب في الدين من دين الغلاة، والشجعان على الباطل.

من الغلط أن نعيب من يحدث بالخير عن هؤلاء الموصوفين لتعريف الناس بقيمتهم، ومن الغلط عد هذا من الشر، بل هو دين الله وسبيل السلف ومسلك من يريد إصلاح السفينة التي كاد أن يغرقها الغلو.

أكرر: كل هذا إذا أردنا أن لا نكون سبباً في ظاهرة غلو جديدة، تكون سببا للقتل وسفك الدماء وتفريق الناس، والله الموفق.

(هذا الذي تقدم يبتعد بقصد عن تكييف الفعل المكفر في نفس صاحبه، وأن هذا التكييف مانع آخر من موانع التكفير، لا بعد ثبوته كما تبحث النقطة المتقدمة، ولكنها قبل أن نسمي الفعل كفراً، والله المعين أن يتكلم عنها الفقير في كلمة أخرى).

وللبيان السريع الهام، فهذا حديث عمن يعظم الله ودينه وشرعه، ويريد الحق ويسعى إليه، ثم يخطئه، فكيف يتصور هذا الكلام أن ينزل على ساب الله ورسوله، وهو الذي ينقض أساس شقي التعارض وهو أن المعين معظم لله ولشرعه ودينه، وباذل نفسه رخيصة لدين الله.

تعليقات وردود

المعلق: كلام نفيس يريح النفس ويرحم العقل، بارك الله في الشيخ.

لكن لدي إشكال في تعميم هذه المسألة؛ فمثلاً: هناك بعض مشايخ الزور ممن أفتوا بقتل المسلمين، يحكون عنهم كثرة العبادة و الزهد!! كرسلان مثلاً.

نرجو من الشيخ أن يتكرم بمزيد تفصيل في المسألة.

الشيخ حفظه الله: أخي؛ هل من يفتي الطاغوت باستحباب قتل المسلمين الذين يسعون لتطبيق الشريعة، مع بعض بدعهم، يتصور منه هذا المعنى في تعارض الأدلة في موضوع التكفير؟!!.

وللذكر: فإن السب ناقض للتعظيم من كل وجه، وكون الرجل مصلياً يعني من جانب تعظيم الشرع، ولكن السب ناقض له من كل وجه، فحينها تقوى دلالة الدليل الأقوى، ويعمل به.

وأرجو الانتباه، وإن كان يحتاج هذا التنبيه إلى شرح، أن معالجة ابن تيمية للأمر معالجة نفسية، أنشأت لدى العلماء التوقف في التكفير، ثم أعقلها بالمعالجة العلمية، وهي التفريق بين النوع والعين.

وهذا الكلام في سياق معالجة الجرأة التي ينتهجها الغلاة في التكفير، ولا يقيمون للعاملين لدين الله أي اعتبار.

وأما الردود العلمية فهي معروفة، وإن كان الجهلة يردونها مع أنها من مسائل الاتفاق.

كلمة في حق كلمة (٢٣)

للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

[٢٩ يوليو ٢٠١٨ – ١٦ ذي القعدة ١٤٣٩]

قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى: "ونحن كذلك لا نقول بكفر من صحت ديانته، وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبلغ من نصحه الأمة ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة، والتأليف فيها، وإن كان مخطئاً في هذه المسألة أو غيرها، كابن حجر الهيتمي، فإنا نعرف كلامه في الدر المنتظم، ولا ننكر سعة علمه، ولهذا نعتني بكتبه كشرح الأربعين، والزواجر، وغيرها، ونعتمد على نقله إذا نقل لأنه من جملة علماء المسلمين".

(الدرر السنية ١/٢٣٦).

هذه الكلمة من الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب من جنس تلك الكلمة التي ذكرتها عن شيخ الإسلام ابن تيمية، والتي فيها النظر إلى حال القائل وفعله من الصلاح والتقوى وبذل النفس لنصرة الدين، والجهاد في سبيل الله تعالى، فإن قيام هذه الأعمال في العالم أو الداعي مانعة من التكفير، فحال المرء من العلم والعمل يجب النظر إليها في هذا الباب في الحكم والقضاء كذلك.

وهذا الإعمال لحال المتكلم إنما هو فيما يمكن صرف معناه عن الكفر الصريح، أو الفعل الصريح، والذي ينقض أصل الإسلام من كل وجه، لأن الواجب هاهنا هو إعذار الصالحين والعلماء، وحمل كلامهم على معنى سعيهم في طلب الحق من الكتاب والسنة، ولم يريدوا مخالفة الله ورسوله، وأن ما قالوه هو من باب اجتهادهم الشرعي في معرفة حكم الله تعالى في هذه المسألة أو الباب.

إن من اشتهر حاله من الفساد والضلال، ومن عرف عنه عدم تعظيم أمر الله، وأن أمر الله عنده متأخر عن هواه، فإن هذا المرء لا يكون كمن علم عنه أنه يقدم روحه لنصرة الدين، وله مواطن خير من الجهاد وقول الحق، وكان حاله من المحافظة على الصلوات، وعليه سمت الدين والسنة.

وهاهنا من كلام الشيخ عبد الله في التعامل مع الناس من خلال هذا المعيار، والذي هو عند المتأخرين من الغلاة لا قيمة له، ولا ينظر إليه، ويعدون اعتباره جهلاً وضلالاً وفساداً.

ونحن هاهنا نتكلم عمن كفر العلماء، وكفر المجاهدين، وكفر من له سابقة تضحية في نصرة الدين، وبان من حاله أن دين الله أغلى عليه من روحه وماله وأهله، وهاجر، وابتلي، وسجن، كل ذلك نصرة للدين، وهو مع ذلك يقول ببعض الكلمات التي في ظاهرها قبول الأحكام الجاهلية، كاستخدامه كلمة الديمقراطية، أو قبوله الدخول في ما يسمى العملية الديمقراطية، وذلك لظنه أن هذا لا يخالف الشريعة، أو هو إعمال لأخف الضررين، أو اتقاءً لما يعتقده من شر بديل عن هذا الاختيار.

كل هذا الكلام يعني عند كل ناظر أن الموضوع لا تعلق له بتصحيح الفعل، إذ لو كان عند الكاتب صحيحاً لما أدخله في باب الإعذار، لأن الإعذار لا يكون إلا لما يقع من عمل غير شرعي.

فهؤلاء الناس من العلماء والصالحين والمجاهدين تحتمل أخطاؤهم، لأننا نعلم من أعمالهم أن مرادهم طلب الحق والسعي في تحصيله.

تأصيل هذه المسألة كالتالي:

علاقة الظاهر بالباطن علاقة تلازم غير مطلقة، ومعنى هذا الكلام أن الظاهر دال على الباطن لزوماً، فلا يوجد طريق لمعرفة باطن المرء إلا بالنظر لظاهره، ولكن لوجود المنافقين ممن ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، ولوجود حالة الإكراه، جاء قيد (غير مطلقة) ذلك لتخلف هذا اللزوم في هذه الصور مثلاً.

وحين يفهم هذا يعلم أن باطن المرء صالح، محب للدين، معظم لأمر الله لما نرى من حاله الظاهر، وهذا ليس إعمالاً للباطن الخفي بلا دلالة ظاهرة، بل بدلالة ظاهرة قوية.

وصورة الخلاف بين أهل السنة والغلاة المبتدعين في هذا الباب كالتالي:

حين يقع لفظ أو فعل مكفر عند الحاكم أو القاضي أو المفتي من امرئ ما، فإن هدي أهل السنة النظر إلى صرف الكفر ابتداءً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لهذا المعنى الذي تقدم، وأما المبتدع الغالي فإنه لا يقيم شأناً لحال القائل أو الفاعل ويسارع لتكفيره، بل يحب أن ينسبه للكفر والخروج من الدين، لأنه لا يعتبر هذا الباطن الصالح الذي دل عليه هذا الظاهر الصالح.

وهذا الباب ليس من التصور العقلي البعيد، بل هو حديث عن واقع فيه هذه الأحكام والأشخاص، وإليك بيانها بما تعلم تذكيراً لا تعليماً:

هذه الجماعات الإسلامية، برجالها وعلمائها، وهؤلاء العلماء في مشارق الأرض ومغاربها، وهؤلاء المجاهدون في فلسطين والشام واليمن، يجتهدون في إصابة حكم الله، وقد يقع منهم من الأقوال والأفعال ما يظنه الناظر أنه كفر، فهل فعل الصالحات له دور في الحكم على طوائفهم وأشخاصهم، أم أنه لا قيمة له، بل يعاملون معاملة العلمانيين والزنادقة، والذين يكيدون للإسلام وأهله ليل نهار!

كلاهما؛ من الزنادقة وبعض الجماعات الإسلامية والدعاة يدخلون السبيل الديمقراطي، فهل حكمهما سواء، أم أن علمنا بدين الناس، وأن معرفتنا ببذل وسعهم في إصابة الحق صارف عنهم الحكم الذي نحكمه على من نعلم من حاله وظاهره الدال على باطنه أنه زنديق خبيث.

وأنا أحكي لكم أمراً قد وقع في هذا الباب دالاً على ما نحن فيه:

أخبرني الشيخ أبو الفرج اليمني، وهو مصري، وسمي باليمني لسكناه إياها، وتفريقاً له عن أبي الفرج المصري، قال: لما أراد سيد إمام حمل جماعة الجهاد على تكفير كل من دخل البرلمان من المسلمين عيناً، وجعل الخلاف في هذا التكفير غير معتبر، وكان أميراً للجماعة يومها، فضاقت صدورهم من هذا القول، وكان سبب الضيق فيما أخبرني أن هذا القول يؤدي إلى تكفير الشيخ العالم القائل بالحق: صلاح أبو إسماعيل!

فهذا رجل قد خبروا حاله الباطن من عمله الظاهر لما وقف في المحكمة وشهد شهادة عظيمة فيما سمي بتنظيم الجهاد، وقال بكفر النظام، بل قال بكفر القاضي الذي أمامه، غير هياب ولا متأتئ، وهو موقف إيماني، ومع ذلك كان يدخل الانتخابات، ويدخل مجلس الشعب.

ما الذي منع الناس من متابعة سيد إمام من تكفير الشيخ صلاح رحمه الله؟

الجواب: هو معرفتهم بدينه وحبه للحق والشرع.

وأظن أن هذا المعنى وقع للكثير من الدعاة وطلبة العلم وهم يتوقفون، بل ويمنعون تكفير جماعات وأفراد لعلمهم بحال الناس، وهو عين ما قاله ابن تيمية وما قاله الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب هنا.

هذا كله يعلمه طلبة العلم ولا ينكرونه، وأرجو أن لا ينكر من طالب علم لمجرد طلب الخصومة، لأن أمر الدين أعظم من أن يدخل بين الناس وسيلة لغيظ النفوس، حتى لو كانت على حق في هذا الغيظ.

فما المطلوب من العلماء والدعاة والمشايخ حين يرون سعاراً في تكفير الدعاة والعلماء ومشايخ الجهاد، والجماعات الإسلامية فيما نحن بصدده؟

الجواب: أن نعرف هؤلاء قيمة هؤلاء الناس، وما هم عليه من الدين، وتقواهم، ومواقفهم الإيمانية، فمن علم حال الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله، وعظم موقفه الصالح خاف من ولوج باب جعله مرتداً كافراً خبيثاً، أشبه بمسيلمة أو بعلماني خبيث، يجلس بجانبه في مجلس الشعب.

وهذا يستدعي وجوباً تعظيم العمل الصالح وعدم احتقاره حين الكلام عن العاملين للإسلام في هذا الباب، فمن لا يعرف قيمة الشجاعة في قول الحق، ومن لا يقيم شأناً للصلاة، ولا لقيام الليل، ولا لسمت السنة، بل إذا قيلت له هنا قال: وماذا يعني!! هذه ليست صوارف لتكفير قائل بالكفر أو واقع فيه!

لا يقول هذا الكلام لمن سب الله تعالى، أو سب رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا لمن استهزأ بالشريعة، بل يقولها لما يقع الحوار حول مخالف لك في باب من أبواب العلم، ترى أنت أنه باب مكفر، وهو يتأول في فعله على وجوه من الظن أنه من الشريعة.

من هنا لإيقاف هذا الغلو الذي رأيناه من الغلاة، وبه حصلت المصائب كان من الدين أن نعالجه بأمرين: أن نعظم لدى الناس شأن أعمال الدين، من صلاة وزكاة وجهاد وصبر، وأن نعظم أصحابها بذكر خيراتهم وفضائلهم ومناقبهم وسبقهم، ليكون هذا مانعاً في نفوسهم من تقحم تكفيرهم، ثم ذبحهم، كما وقع وجرى.

والشأن في هذا معلوم عند طلبة العلم، نقوله تذكيراً لا تعليماً، أنه حين تكون الجرأة على تكفير المخالف، وفتوى قتله وذبحه، وهو عندنا مسلم، أن نعظم شأنه، معرضين عن شره وغلطه بعض الإعراض زمناً، حتى نمنع تكفيره وذبحه، وذلك لتحصيل الخير وصرف الشر، وهذا ما وقع من شيخ الإسلام ابن تيمية لما وقف لمحمد بن ناصر الدين قلاوون عندما أراد منه فتوى في قتل من ناصر بيبرس الجاشكيري،

وهم قد أفتوا بيبرس هذا بقتل ابن تيمية، فوقف الشيخ رحمه الله موقف العدل والحكمة والدين، فعظم شأنهم في العلم والفتوى، وعظم مقامهم بين المسلمين، وقال كلاماً فيه تعديلهم وتوثيقهم، غير متوجه إلى خلافه معهم، ولا ما وقع منهم من ظلم له، ولا ما أفتوا به بيبرس، والذي كان معظماً لابن عربي الطائي صاحب الفصوص.

فالأحوال لها مقاماتها، ونحن اليوم في داخلنا غلو أفسد وأظلم، ووقع من جهلة أغمار، ومن سبيل العلم والتقوى أن نعالجه بالحق والهدى.

اللهم خذ بأيدينا جميعاً لما تحب وترضى، واجعلنا سبباً لحب المسلمين والدفاع عنهم، والله يرحمنا برحمته.

كلمة في حق كلمة (٢٤)

لأحمد بن حرب رحمه الله

[١٣ أكتوبر ٢٠١٨ – ٢ صفر ١٤٤٠]

قال أحمد بن حرب: "عبدت الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتى تركت ثلاثة أشياء: تركت رضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق، وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين، وتركت حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة".

(سير أعلام النبلاء).

هذا رجل إمام قدوة عابد كما وصفه صيرفي الرجال الإمام الذهبي رحمه الله، يتكلم عن حاله وكيف تحصل مراتب الصلاح في العبد، وكل مرتبة من مراتب التعبد توجب ترك مرتب من مراتب الهوى، وما من مرتبة يرتقي بها العبد حتى يجاهد في ترك ضدها، وهكذا يصف لنا هذا العابد حاله، وما وقع منه.

أما الغاية التي يسعى لها، وتجعل العابد في حال من أحوال النبوة المخبتة، في قوله صلى الله عليه وسلم: (**وجعلت قرة عيني في الصلاة**)[١] فهي أن يجد المرء لذة العبادة، وحلاوة المناجاة، فبعد أن كانت العبادة تكليفاً، تصير كلفاً وتعلقاً ومحبة، وحينها يقبل العبد على الله وهو فرح جذل سعيد.

العبادة التي تحقق مقاصدها لابد لها من شرطين:

أولاهما: الكثرة؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: (**فأعني على نفسك بكثرة السجود**)[٢] وكقوله تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**﴾ وكقوله صلى الله عليه وسلم: (**أكثروا من ذكر هادم اللذات**)[٣]، وكقوله تعالى: ﴿**كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾.

---

[١] رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح النسائي.

[٢] رواه مسلم في صحيحه.

[٣] رواه الترمذي وحسّنه.

وأما الشرط الثاني: فهو القيام بها مع استحضار المعاني، وذلك بحضور القلب علماً وحالاً، وذلك بتأمل معانيها الكلية والفرعية، وقد يسد أحدهما ضعف الآخر، فقد يضعف الفكر فيسد بدلاً عنه كثرة الذكر، وقد يضعف الذكر فيسد بدلاً منه الفكر، ولكن إن ضعفا لم يعرف المرء حلاوة العبادة، وسيفوته الخير العظيم.

هناك معوقات قلبية تمنع هذه اللذة الإيمانية، وهي ما ذكره هذا الإمام القدوة العابد الزاهد:

أولها: ترك رضا الخلق، وعدم النظر لهم، ذلك لأن الخلق أواني فارغة، لا يضرونك بشيء إن غضبوا عليك، ولا ينفعونك بشيء إن رضوا عنك، فاصرف قلبك عن طلب رضاهم، ثم إنهم قد يرضون عنك بقلوبهم فتأبى ألسنتهم للحسد ومخالفة المنهج، ووجود الخصومة، واتباع الهوى، والأمر كما قال الشافعي: **رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بما ينفعك فالزمه.**

وطريق العبادة لا يستقيم العبد عليها إلا بالنظر للآخرة، ويجمع همه هماً واحداً وهو السعي لطلب رضا الله وتحصيل الجنة.

وطلب رضا الناس يوقع العبد في موافقتهم، وهم لا يستقرون على طلب، ولا يطيب لهم حال، وبهذا يكثر العبد التلون، ويقل الإخلاص، ويفسد الدين، وأعظم ما يفسده هذا المرض وهو طلب رضا الناس: ترك قول الحق، وخاصة للدعاة والعلماء والمذكرين، والمرء لا يذوق لذة العبادة حتى يقول الحق، وقول الحق لا يقرب لك إلا من كان ديّناً في صحبته، يذكرك إن نسيت، ويعينك إن ذكرت، وبهذا تعيش الدين حالاً في كل وقت.

من سكت عن الباطل لم يذق حلاوة العبادة، إذ يحصل له صحبة السوء، وشرار الخلق، فهو بين حسد ومكابرة، فيحرم من معاني التعبد، فيقسو قلبه فينفر من الطاعات.

اترك رضا الخلق، واقبل على الله، يحصل لك الخير العظيم.

لكن هذا لا يعني أبداً سوء الخلق مع الخلق، ولا ترك الحكمة في النصح، ولا محبة الخير للمسلمين، لأن البعض يظن أن ترك رضا الناس يعني بغض الخير لهم، أو كراهيتهم، أو سوء الخلق معهم، وهذا في بعض الخلق بين وواضح.

وهذا الأمر يفرز لك المعنى الثاني مما قاله الإمام، وهو صحبة الصالحين، وترك صحبة غيرهم، وهؤلاء هم من يعينونك على الخير، ويسددون حالك ومقالك، وهؤلاء قد لا يرضونك بقولهم، ولكن ينفعونك بعقولهم وقلوبهم، فاحرص عليهم، ورقق لهم القول، وليتسع صدرك وقلبك لهم، ولتدم الدعاء لهم، فمن حصل أخاً صالحاً، عاقلاً في هذه الدنيا لم يضره فوات كل الخلق بعد ذلك.

وأما الشرط الثالث: فهو استغراق العبد في المعاني دون الأشياء، فهذان ضدان يشغلان القلب، التأمل في المعاني أو تحصيل الأشياء للتكثر والمنافسة والذوبان فيها.

أما الآخرة فهي دار الغيب، ودار المعاني القلبية، وأما الدنيا فدار الأشياء، ومن الخير للعبد أن يخرق الحجب بقلبه وعقله، فهو يناجي الله، وهو أعظم الغيب، وهو يصلي على الحبيب ويسلم عليه فيرى بقلبه أن سلامه يحمل للنبي صلى الله عليه وسلم إلى قبره فيرد عليه السلام، وهو يذكر الله فيرى بقلبه ذكر الله له، فإن ذكره في نفسه ذكره الله في نفسه، وإن ذكره في ملأ ذكره الله في ملأ، فبهذا يعيش الغيب والآخرة، يصلي وهو يرى أنه بكل سجدة يرتقي درجة في الجنة، ويتصدق فيراها تنمو في كف الله تعالى.

هذا عالم الغيب، وهو عالم المعاني القلبية، والتي هي شرط تحصيل لذة العبادة، لأنها تحقق للعبادة معناها.

الناس بين عيش المعاني والأشياء في صراع على القلب، فمن غلب تفكره على بطنه وفرجه وقنيته حصل له العلم الذي به يزيد وزنه في ميزان الله تعالى، لأنه يوم القيام يحصل ما في الصدور.

والحمد لله رب العالمين.

كلمة في حق كلمة (٢٥)

للفضيل بن عياض رحمه الله

[١٤ أكتوبر ٢٠١٨ – ٣ صفر ١٤٤٠]

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: "كفى بالله محباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً، اتخذ الله صاحباً وذر الناس جانباً".

(العزلة للخطابي).

تواترت كلمات الصالحين في أزمانهم بهجر الناس وترك المخالطة الشديدة، وكلامهم هذا دعوة للانشغال بما ينفع المرء، وهؤلاء القائلون لهذا الكلام بذلوا أعمارهم في البداية بطلب العلم، ومجالسة العلماء والصالحين، فشهدت لهم حلقات العلم، وشهدت لهم الديار بالرحلة، والجري وراء الشيوخ، حتى تضلعوا، فامتلأت نفوسهم بالحكمة، ورغبت في الدار الآخرة ولقاء الله، فصارت مجالسة الناس تؤذيهم وترهقهم، وتشغلهم عما تحب هذه النفوس من الخلوة مع الذكر وقراءة القرآن والتأمل في العلم بالنظر في كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعد لهم نظر لما يقول الناس، من كلام يغضبهم أو يرضيهم، فأنسوا بذكر الله، وطابت نفوسهم حتى أحبوه حباً ملأ هذه القلوب، وحب الله تعالى إنما ينشأ أولا لمحبة القلوب للعظيم والجميل والرحيم والغفور والرزاق والجواد، وهكذا، فلما غشيت قلوبهم هذه المعاني من أسماء الله وصفاته أحبوه، ذلك لأنهم عرفوه، والعبد كلما ازداد معرفة بالله ازداد حباً له، فاذا أحصى أسماءه عداً، وعلمها معنىً، وتعبد بها حالاً ملأت محبة الله قلبه، فهو يذكره ليرضيه، ويحمده ليرضيه، إذ يسعده أن يفرح الله، ويسعده أن يذكره الله، ثم هو يحب الله لعطائه العميم، وكرمه البالغ، وجوده الذي لا ينتهي، ورزقه للعباد مع كثرة وتنوع مطالبهم وحاجاتهم، فيجتمع في قلبه حب الله لذاته العلية، وحبه لنعمه المتعدية إلى الخلق، ثم هو يعلم إن أحبه الله لم يضره غيره، وإن أحبه الله أحبه الصالحون، وإن أحبه الله لم يحتج لغيره، وإن أحبه الله كفي وهدي ووقي، والعبادة مع معنى المحبة عجب من الأعاجيب، إذ توقف العبد في كل وقته على أعتابه، يرضيه، ويناجيه، ويكلمه، ويسأله، ويذكره بأحسن الذكر، ويحمده بأكمل المحامد، ويطنب في الكلمات التي يحبها المحبوب، فهو دائم الذكر

لـ(سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) لعلمه بأن محبوبه يحبها، ولمثلها من الكلمات، كـ(سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، فلا يزال لسانه مشغول بذكر محبوبه.

فإن حصل هذا كفي العبد، والله كافٍ عبده، إن شغله ذكر الله تعالى كفاه الله ما أهمه وأغمه، وأعطاه سؤله، وقضى حاجاته، ولو (أقسم على محبوبه لأبره) إذ يكره رده، ويكره مساءته، ولو خطرت في قلبه الخواطر أقامها على الحق، فلا ينطق إلا به، وإن التفت لغيره هداه للتوبة، وحين الموت ينزل إليه ملائكته بالبشرى ﴿**تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾، لأنهم هم أولياء الله.

فلذلك يقول هذا الإمام العجيب في علمه وعبادته: (**كفى بالله محباً**) صرفاً للعبد أن يسعى لحب غيره، سائلاً إياه، أو مشغولاً بذكره، أو ساعياً لرضاه.

ومن أحب الله آنس بتلاوة كلامه، لأنه كلام المحبوب، به يتحدث عن صفاته الحسنى التي تحبها النفوس الحسنة، وبه يتحدث عما يحب ويكره، وبه يتحدث عما أعد لأوليائه، وما حذر أعداءه، وقد جعل هذا المحبوب في كلامه نوراً، يغزو القلوب فيخرجها من ظلامها، ويفتح عليها من المعارف والمعاني التي يستغرق بها أصحاب المعاني، والذين ارتقت نفوسهم من حمأة الطين إلى عالم الملكوت ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾، فتنشغل القلوب بهذه المشاهد الجميلة الرائعة، والمهيبة العظيمة، فتخرق حجب الشهادة إلى عوالم الغيب، ووالله ما رأيت مثل كتاب الله في الأنس حين تغيب عوالم الشهود، وكنت حين أكون في خلوة السجن، وهي تمتد أمام عيني، ومعها تجثم أسوار الزنزانة الضيقة أذهب لكتاب ربي، فما هي إلا صفحات أتلوها فتذهب الأزمنة الثقيلة جرياناً، ووالله تحدثاً بنعمة الله تعالى: إني لتغيب عني أسوار الضيق والقهر، فكأني في عالم آخر، وحديث آخر، ومعنى آخر، فيا الله ما أعظم الأنس بالقرآن، ويا الله ما أعظم أهل القرآن بالهناء والراحة والطمأنينة وبرد العيش، ووالله من لم يذق لم يفهم، ومن لم يعش فإنما هو ميت بين الأحياء.

في القرآن أنس المعاني لأصحاب المعاني، وأنس النور لمن يطلب طرد الظلمة، وأنس أعظم من ذلك كله وهو مجالسة المحبوب.

وإن هذه المعاني لا تكون إلا لقلب عاش مع الآخرة، ورغب عن الدنيا، وأيقن أن الموت هو الحقيقة التي لا تنكر، وأنها واقفة أمام عينيك تنتظرك، وأنت تمشي إليها في كل لحظة، فهي طالبة لك كل حين، لا تكل ولا تمل.

وحين يغيب الغيب، فينسى المرء، والمرء نسّاء كما نسي آدم عليه السلام، فنسيت ذريته، يحضر الموت، وقرب الرحيل، فلا تأنس بشيء من الدنيا، لأنك مفارقه، فأنت لا تبكيه عندما يذهب، بل أنت باكيه وهو بين يديك، كما قال الشاعر:

وَلَقَدْ بَكَيْتُ على الشَّبابِ وَلِمتي مُسْوَدّةٌ وَلِمَاءِ وَجْهي رَوْنَقُ
حَذَراً عَلَيْهِ قَبلَ يَوْمِ فِراقِهِ حتى لَكِدْتُ بمَاءِ جَفني أشرَقُ

لا يقر لك قرار السكون والاطمئنان لشيء من أشياء الدنيا، فأنت إن أصبحت لا تنتظر المساء، وإن أمسيت فلا تنتظر الصباح، وكيف تقر والموت يلاحقك، فإن دعيت لغفلة أو ذنب تذكرت الموت، وما بعد الموت، فيحصل لك ذكرى الصالحين ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

الله يكفي، فاتخذه ولياً، واتخذه صاحباً لك، تذكره دائماً، وهو معك إن ذكرته، واتخذه إلهاً دون غيره، لأنك إن سألته أعطاك، وإن عذت به أعاذك، وإن حماك فحماه لا يخفر، وإن أعطاك فعطاؤه لا يمنع، ودع عنك طلب الآخرين، لأن الله يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قف على باب العبودية من باب الحب والأنس والشكر تصب خيراً عظيماً.

والحمد لله رب العالمين.

فهرست المقالات